مقدمات في

الاعتقاد



تأليف

أ . د ناصربن عبدالله القفاري

دار أصداء المجتمع

مقدمات
في الاعتقاد

أ. د/ ناصر بن عبد الله القفاري

دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع ، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القفاري ، ناصر بن عبدالله

مقدمات في الاعتقاد .- ط٢ .- بريدة.

١٠٤ ص ، ١٢ × ١٧سم

ردمك : ٦ - ٥٧٦ - ٣٩ - ٩٩٦٠

١ - العقيدة الإسلامية ٢ - أهل السنة أ - العنوان

ديوي ٢٤٠ ٢٢/٣٠٢٣

رقم الإيداع : ٢٢/٣٠٢٣

ردمك : ٦ - ٥٧٦ - ٣٩ - ٩٩٦٠

الطبعة الثانية

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار أصداء المجتمع للنشر والتوزيع

بريدة - ت ٣٢٣٦٣٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فهذه " كلمات " يسيرة في مقدمات مهمة لمباحث عقدية تمثل الخطوط العامة لجزء من دروس علمية ألقِيَت على بعض طلاب العلم وهي كمدخل لدراسة الاعتقاد وفق منهج يعتمد شرح العقيدة الطحاوية كمرجع رئيس ، ولذا كانت مقدمة شرح العقيدة الطحاوية هي أساس هذه الورقات ، وكان المنهج هو حدودها وإطارها فلم تتسع لمباحث أخرى وترتيب آخر ونسق مغاير .

وسيتبع هذه المقدمة بإذن الله التتمة والتي تبدأ بالأصل الأول وهو : التوحيد ، وأسأل الله - سبحانه – أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، موافقاً لهدي نبيه ، والحمد لله أولاً وآخراً .

أسماء هذا العلم وألقابه

السنة :

هذا الاسم يطلق على علم التوحيد ، وإن كان هذا الاسم في الأصل عبارة عما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، أو صفة خَلْقِيَّة أو خُلُقِيَّة .

ويبدو أن تخصيص مَفهوم السنة بأصول الاعتقاد أي إطلاق اسم السنة على علم العقيدة بدأ في عصر متقدم ، فالإمام ابن أبي عاصم المتوفى سنة ٢٨٧هـ يشير إلى ذلك حين ذكر جملاً من الاعتقاد ضمن مفهوم السنة [١] . والإمام أحمد جرى ذكر السنة عنده بهذا المعنى ، ولهذا قال ابن رجب - رحمه الله - : " السنة : طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه السالمة من الشبهات والشهوات ، ثم صارت في عرف كثير من العلماء من أهل

(١) انظر : السنة لابن أبي عاصم : ٢/٦٤٥ – ٦٤٧ .

الحديث وغيرهم : السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكذلك مسائل القدر وفضائل الصحابة ، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة ، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة ؛ لأن خطره عظيم والمخالف فيه على شفا هلكة " [١] .

وكذا قال الألوسي - رحمه الله - : السنة في الأصل تقع على ما كان عليه رسول الله ﷺ وما سنه أو أمر به من أصول الدين وفروعه حتى الهدي والسمت ، ثم خصت في بعض الاطلاقات بما كان عليه أهل السنة من إثبات الأسماء والصفات خلافاً للجهمية المعطلة النفاة . وخصت بإثبات القدر ونفي الجبر خلافاً للقدرية النفاة وللقدرية الجبرية العصاة .

وتطلق أيضا على ما كان عليه السلف الصالح في مسائل الإمامة والتفضيل والكف عما شجر بين أصحاب النبي ﷺ .

---

(١) كشف الكربة : ص ١١ – ١٢ ، جامع العلوم والحكم ص ٢٣٠ .

وهذا من إطلاق الاسم على بعض مسمياته ، لأنهم يريدون بمثل هذا الإطلاق أن المسمى ركن أعظم وشرط أكبر ، كقوله ﷺ : " **الحج عرفة** "[١] ، أو لأنه الوصف الفارق بينهم وبين غيرهم لذلك سمى العلماء كتبهم في هذه الأصول كتب السنة .

الإيمان :

ويطلق الإيمان ويراد به مسائل الاعتقاد وبهذا فسره النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور حين جاء يعلم الصحابة دينهم ، فسأل النبي ﷺ عن الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام : " **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** "[٢] .

---

(١) رواه أبو داود في كتاب المناسك ، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ، وابن ماجة في المناسك من سننهم ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) ومن المعلوم أن الإيمان والإسلام تجري عليهما دلالة الاقتران والافتراق في المعنى فإذا اجتمعا افترقا وإذا انفردا اجتمعا أي إذا اجتمعا افترقا في المعنى فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة ويراد بالإيمان الأعمال الباطنة ، وإذا افترقا اجتمعا فيعبر بأحدهما عن الآخر فإذا أطلق الإيمان دخل فيه معنى الاسلام ، والعكس .

التوحيد :

ويسمى هذا العلم باسم باب التوحيد وهذا من باب تسمية الشيء بأشرف أجزائه ، لأن توحيد الله - سبحانه - هو أشرف مباحث هذا العلم ، وسائر المباحث كالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر ، والإمامة والصحابة تعتمد عليه فهو أساسها ، وجوهرها .

الأصول :

ويسمى هذا العلم باسم " الأصول " ومن ذلك ما كتبه أبو عمر الطلمنكي في هذا الباب وسماه " الوصول إلى معرفة الأصول " ولذا قال الشهرستاني : الأصول هو موضوع علم الكلام (حسب التسمية الشائعة وهي خطأ كما سيأتي) والفروع وهو موضوع علم الفقه .

وقد نبه شيخ الإسلام إلى أن تقسيم الدين إلى أصول وفروع أمر محدث ، ولم يكن في عصر السلف ، ولا ينضبط بحد محدود.
قلت : وقد يكون لهذا آثار غير سليمة حين يترجم هذا المعنى

للجاليات الداخلة في الإسلام حديثاً فيتوهم متوهم أن في الدين فروعاً يُستغنى عنها .. ولعل الأسلم أن يقال : عقيدة وشريعة ، أو مسائل علمية ومسائل عملية .

التصور :

وهو مصطلح منطقي ، وأطلقه بعض المعاصرين على علم الاعتقاد وسمى الأستاذ سيد قطب كتابه في هذا الباب "خصائص التصور الإسلامي ومقوماته "

الفقه الأكبر :

ويسمى هذا العلم باسم الفقه الأكبر بالنسبة لفقه الفروع ، ولذا سميت بعض المصنفات في هذا العلم بهذا الاسم كما سيأتي .

العقيدة :

وهو اسم شائع ولم يرد لفظ العقيدة بهذا المعنى في الكتاب والسنة ، ولكن معناه حق ذلك لأن مادة عقد في اللغة مدارها على توثيق الشيء وتوكيده وإحكامه . قال - تعالى - : ﴿ لا

يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ . وتعقد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه .

جاء في المصباح : اعتقدت كذا : عقدت عليه القلب والضمير حتى قيل العقيدة ما يدين الإنسان به .

علم الكلام :

ويسمي بعضهم هذا العلم بهذا الاسم وهو خطأ ، لأن علم الكلام مصدره عقول البشر وفلسفات الهند واليونان . والتوحيد مصدره الوحي ، وعلم الكلام قد ذمه السلف ، والتوحيد أصل دعوة الرسل ، وأول واجب على المكلف الخ ، والتوحيد علم وإيمان ويقين ، والكلام جهل وحيرة وشك ، فالفرق بينهما مثل الفرق بين الثرى والثريا . فهل يقارن هذا بهذا فضلاً عن أن يسمى باسمه ؟!

الفلسفة [١] **:**

وهو أيضاً يطلق - خطأ - على هذا العلم ، جاء في المعجم الفلسفي : " وأطلق أخيراً لفظ الفلسفة على دراسة ما يتصل بمشكلة المعرفة والوجود والألوهية وهي مادة من مواد الليسانس في الجامعات الغربية ، وشاع هذا الاستعمال أخيراً ، وكثيراً ما حل محل لفظ الميتافيزيقا " [٢] . (يعني ما وراء الطبيعة أي مسائل الغيب) .

وإذا نظرنا إلى أصل معنى الفلسفة اليوناني وأن ترجمتها الحكمة ، فإن من يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، لكن أطلق هذا الاسم على مخلفات الفلسفات اليونانية وهي جهد البشر في محاولة العلم بالله فهي ركام جهل وضلال بيِّن يوضح هذا أن اسم الفلسفة الأولى أطلقه أرسطو على دراسة الموجودات

---

(١) انظر : المعجم الفلسفي .

(٢) انظر : المعجم الفلسفي .

الأزلية [١] ، وهي دراسة بعيدة عن هدي السماء ، ولذا فهي تاهت في دروب الضلال وبيداء الجهالة ، كما يجده المراجع للمكتبة الفلسفية .

منزلة علم أصول الدين (العقيدة) (التوحيد) :

هو أشرف العلوم منزلة ، وأعلاها مكانة ، وأوجبها مطلباً ، وأرفعها قدراً ، يتبين ذلك فيما يلي :

أولاً : أن شرف العلم بشرف موضوعه ، وموضوع هذا العلم هو معرفة المعبود - سبحانه - بربوبيته وأولوهيته وأسمائه وصفاته ، فلا يصل لدرجة هذا الموضوع أي علم من العلوم .

فهل يقارب العلم بالله علم سواه ؟

نحن نقول : إن علم الطب أشرف من علم النجارة ؛ لأن موضوع الطب هو الإنسان ، وموضوع النجارة هو الأخشاب ، فموضوع علم التوحيد هو خالق الإنسان وموجده ، ومن بيده

---

(١) انظر : المعجم الفلسفي .

سعادته وشقاوته وحياته وموته فهو أشرف العلوم إذن على الإطلاق .

ثانياً : أن السلف كانوا يسمونه " الفقه الأكبر " بالنسبة لفقه الفروع ، وينسب لأبي حنيفة كتاب بهذا الإسم ، وكذلك الشافعي .

ثالثاً : أن السعادة في الدنيا متوقفة على العلم به فحاجة العبد إليه فوق كل حاجة وضرورته إليه فوق كل ضرورة ، فلا راحة ولا طمأنينة ولا أنس ولا سعادة إلا بأن يعرف العبد ربه بألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته . فكما يحتاج الإنسان إلى طعامه وشرابه يحتاج إلى هذا الأمر بل حاجته لمعرفة ربه أعظم .

قال شيخ الإسلام : " حاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب ، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان ، وإذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات

قلبه موتاً لا ترجى الحياة معه أبداً ، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبَداً " [١] .

ولهذا سمى الله - تعالى - ما أنزله على رسوله روحاً لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، وسماه نوراً لتوقف الهداية عليه ، وسماه شفاء ؛ لأنه دواء للنفوس من عللها .

قال شيخ الإسلام : " والرسالة روح العالم ونوره وحياته ، فأي صلاح للعالم إذا عُدِم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة ، فكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وينالـه من حياتها وروحها فهو في ظلمة وهو من الأموات . قال الله - تعالى - : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يَمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ . فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل ، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات .

---

(١) الفتاوى : ١٩/٩٦ - ٩٧ .

وسمى الله (الكلام لا يزال لشيخ الإسلام) - تعالى - رسالته روحاً ، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة . قال الله - تعالى - : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلنا نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا** ﴾ . ا.هـ .

ولذا فإن أهل الإيمان في سعادة حتى قال أحدهم : (لو يعلم الملوك وأولاد الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) .

ولذا قيل : " إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة " . ألا وهي جنة الإيمان ، ولذة الصلة بالرحمن ومناجاة ذي الجلال والإكرام ، والتي لا يفقدها المؤمن المحقق للإيمان وإن رمي به في غياهب السجون حتى قال أحد المؤمنين : " ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري إن قتلي شهادة ، وإن نفيي سياحة ، وإن سجني خلوة بربي ، ولذا قيل : إن المأسور من أسره هواه والمسجون من سجن عن ربه "

وحين وضع شيخ الإسلام ابن تيمية في السجن وأوصدت دونه الأبواب . قال - رحمه الله - : (وضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب : ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري ... الخ) .

وكتب - رحمه الله- إلى أصحابه وهو في حبس الإسكندرية فقال : " وأما بنعمة ربك فحدث " والذي أعرّف به الجماعة أحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة وأتم عليهم نعمته الظاهرة والباطنة فإني - والله العظيم الذي لا إله إلا هو - في نعم من الله ما رأيت مثلها في عمري كله ، وقد فتح الله - سبحانه وتعالى - من أبواب فضله ونعمته وخزائن جوده ورحمته ما لم يكن بالبال ،ولا يدور في الخيال ، ما يصل الطرف إليها ، يسرها الله تعالى ... فإن اللذة والفرح والسرور وطيب الوقت والنعيم الذي لا يمكن التعبير عنه إنما هو في معرفة الله - سبحانه وتعالى - وتوحيده والإيمان به ، وانفتاح الحقائق الإيمانية والمعارف

القرآنية ،كما قال بعض الشيوخ ... لقد كنت في حال أقول فيها : إن كان أهل الجنة في هذه الحال إنهم لفي عيش طيب .

وقال آخر : لتمر على القلب أوقات يرقص فيها طرباً .

وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة ، إلا نعيم الإيمان والمعرفة ولهذا كان النبي ﷺ يقول : " **أرحنا بالصلاة يا بلال** " ولا يقول أرحنا منها كما يقوله من تثقل عليه الصلاة ، كما قال - تعالى - : ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ .

وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه، ولا يمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه. وهذه حقيقة لا إله إلا الله وهي ملة إبراهيم وسائر الأنبياء صلاة الله عليهم وسلامه أجمعين (١) .

فالخالق إذا اشتكى إليه المخلوق وأنزل حاجته به واستغفره من ذنوبه أيده ، وقواه ، وهداه ، وسدّ فاقته ، وأغناه ، وقربه ، وأحبه ، واصطفاه ، والمخلوق إذا أنزل العبد به حاجته استرذله

(١) الفتاوى : ٢٨/ ٣٢ .

وازدراه ، ثم أعرض عنه خسر الدنيا والآخرة ، وإن قضى له بعض مطلبه استعبده بما يهواه ، ولذا قال الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام : " فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون "

وقال - تعالى - : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

وهذا باب واسع قد كتبت فيه كثيراً (لا يزال الكلام لشيخ الإسلام) وعرفته علماً وذوقاً وتجربة [١] .

وبضد ذلك إذا أقفر قلب العبد من الإيمان ، وشرد المخلوق عن الصلة بخالقه وقع له من الضنك بقدر ذلك ﴿ **ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾. كما أن ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

---

(١) المصدر السابق ٢٨/ ٤٠ – ٤١ .

فتكفل الله أن يحييه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب في الآخرة [١] .

والشواهد كثيرة ، ونسب الانتحار في البلدان التي بلغت الغاية في الرخاء المادي بلغت أرقاماً عالية والأمراض النفسية والعصبية ، ومظاهر الشذوذ بشتى أنواعه مما تزخر به حضارة العصر شاهدة على نفسها بالكفر معلنة إفلاسها في الوصول إلى سعادة الإنسان ، بل بمقدار ما يفرط العبد ويكتسب من الآثام يناله حقه من حياة الضنك . قال - تعالى - : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ . ولذا قال بعض الصالحين : إني أعصي الله فأجد عقوبة ذلك في خلق زوجتي وطبع دابتي .

رابعاً : إن قبول الأعمال متوقف على تحققه (أي التوحيد) وكمالها على كماله .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ١/٤٣ – ٤٤ .

خامساً : تتوقف عليه النجاة في الآخرة ، فقد جاءت النصوص بأنه لا يخلد في النار موحد كما أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وأسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه .

سادساً : يتحرر المخلوق بتحقيقه من رق المخلوق وعبوديته والتحري لنفعه ، والخوف من ضره ، والنظر لمدحه وقدحه ، وهذه قمة العزة ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

سابعاً : أنه أول دعوة الرسل ، فقد قال نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب لأقوامهم : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره** ﴾ . ولهذا قال - سبحانه - : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ .

ثامناً : أنه أول واجب على المكلف ، قال ﷺ : " **أمـوت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلــه إلا الله** " [١] . فبه يدخل في الإسلام ويحقن الدم .

تاسعاً : أنه آخر واجب ، ففي السنن من حديث معاذ " **مـن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** " [٢] . وفي الصحيح من رواية مسلم عن عثمان : " **من مات وهو يعلم أن لا إلــه إلا الله دخل الجنة** " [٣] وفي الحديث الصحيح مـن روايـة مسـلم عـن أبـي هريرة : " **لقنوا موتاكم لا إله إلا الله** " [٤] . وفي المسند : " إني لا أعلم كلمة لا يقولها عبد حين الموت إلا وجد لها روحاً وهي الكلمة التي عرضها على عمه عنـد الموت " [٥] . (ويقصـد بهذا

---

(١) أخرجه البخاري (١٤/٨) ومسلم (٣٢،٣٦) والترمذي (٢٦٠٦ ، ٢٦٠٧) والنسائي (١٤/٥) وأبو داود (١٥٥٦ ، ٢٦٤٠) وأحمد : ١٩/١ ، ٤٧- ٤٨ وغيرهم .

(٢) أبو داود (٣١١٦) .

(٣) أخرجه مسلم (٤٣) وأحمد ٦٥/٩ ، ٦٩ .

(٤) أخرجه مسلم (٩١٦ ، ٩١٧) وأبو داود (٣١١٧) والنسائي (١٨٣٧) وابن ماجة (١٤٤٥) وأحمد : ٣/٣ .

(٥) انظر المسند : ٢٨/١ ، قال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح (١٨٧/١) .

والأمرين قبله توحيد الألوهية) .

عاشراً : أن القرآن كله في التوحيد ، قال ابن القيم - رحمه الله - : " وغالب سور القرآن متضمنة لأنواع التوحيد بل كل سورة في القرآن ، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي " .

وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده في الدنيا والآخرة فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن عقوبة أهل الشرك في الدنيا والآخرة فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وبعد ، فهذه أهم المعالم التي تبين منزلة هذا العلم وعظيم مقامه ، وأقرب الناس تحقيقاً للتوحيد واتباعاً لهدي المرسلين فيه هم أهل السنة والجماعة ، فمن هم أهل السنة ؟ وما عمدتهم في التلقي ؟ هذا ما سيتبين - إن شاء الله - في المبحث التالي .

التعريف بأهل السنة والجماعة

سئل الإمام مالك عن أهل السنة فقال : " أهل السنة الذين ليس لهم لقب يعرفون به ، لا جهمي ، ولا قدري ، ولا رافضي " [١] .

فأهل السنة ليس لهم لقب يعرفون به وينبزون لأنهم الأصل الذي انشق عنه جميع المخالفين ... والمخالف هو الذي سرعان ما يشتهر ببدعته من تجهم أو رفض أو نصب أو إرجاء .

وأجاب الإمام مالك مرة أخرى لما سئل عن السنة فقال : " هي ما لا اسم له غير السنة وتلا ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ [الأنعام ، الآية ٥٣] " [٢] . فليس لأهل السنة اسم إلا السنة .. وقد حاول بعض المبتدعة نبزهم بألقاب مكروهة فردت محاولتهم عليهم ،

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص٣٥ .

(٢) الاعتصام للشاطبي : ١/٥٨ .

وأصبحت مقالتهم علامة على بدعتهم [١]

وقال الإمام أبو حنيفة : " الجماعة : أن تفضل أبا بكر وعمر وعلياً وعثمان [٢] ولا تنتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا تكفر الناس بالذنوب ، وتصلي على من يقول لا إله إلا الله وخلف من قال : لا إله إلا الله وتمسح على الخفين " [٣] .

---

(١) ولذا قال بعض أئمة السنة : علامة الزنادقة تسميتهم أهل السنة حشوية يريدون إبطال الآثار .

وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة .

وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة .

وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة .

ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد (يعني السنة) ويستحيل أن يجمعهم هذه الأسماء [شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٧٩/١ ، ١٨٢ ، وانظر شرح الطحاوية ٨٦/١ ، تحقيق د. التركي] .

(٢) قال الإمام علي بن علي بن العز الحنفي : " روي عن أبي حنيفة تقديم علي على عثمان ، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على علي ، وعلى هذا عامة أهل السنة " . شرح الطحاوية ص٤٨٦ ط الألباني ، وانظر : معالم السنن للخطابي : ٣٠٢/٤ – ٣٠٣ ، شرح الفقه الأكبر / ملا علي القاري ص١١٩ ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " ... مسألة عثمان وعلي ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة ، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي مسألة الخلافة " . [الفتاوى : ١٥٣/٣] .

(٣) الانتقاء ص ١٦٣ – ١٦٤ .

فالإمام أبو حنيفة يعرِّف الجماعة ببعض مبادئها التي شذ عنها بعض المبتدعة .

قال الإمام أحمد : " أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم ساق جملة من أصول السنة التي شذت عنها المبتدعة "(١)

وقال سفيان بن عيينة : " السنة عشرة ممن كنَّ فيه فقد استكمل السنة ، ومن ترك منها شيئاً فقد ترك السنة : إثبات القدر ، وتقديم أبي بكر وعمر ، والحوض ، والشفاعة ، والميزان ، والصراط ، والإيمان قول وعمل ، والقرآن كلام الله ، وعذاب القبر ، والبعث يوم القيامة ، ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم "(٢) .

وقال علي بن المديني : " السنة اللازمة التي من ترك منها

---

(١) راجعها - إن شئت - في شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ١/١٥٦ وما بعدها ، طبقات الحنابلة : ١/٢٤١ — ٢٤٦.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٥٥ — ١٥٦

خصلة لم يقلها أو يؤمن بها لم يكن من أهلها : الإيمان بالقدر خيره وشره ، ثم ساق جملاً من اعتقاد أهل السنة "[١] .

فالسنة تعرف بأصولها التي تلقاها أهلها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

لذلك فإن الدخول في مسلكهم والانتظام في جمعهم مرهون بتحقيق ما دلَّ عليه الكتاب والسنة من أصولهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة "[٢] .

وأهل السنة يَزِنُونَ بهذا الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أحوال وأعمال مما له تعلق بالدين[٣] .

ويخطئ من يعرف أهل السنة كفرقة طارئة بدأت من عصر الإمام أحمد أو مع الإمام أبي الحسن الأشعري لأن " مذهب

---

(١) انظر المصدر السابق : ١/١٦٥ .

(٢) الفتاوى : ٣/٣٤٦ .

(٣) المصدر السابق : ٣/١٥٧ .

أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكاً والشافعي وأحمد ، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم ، ومن خالف ذلك كان مبتدعاً عند أهل السنة والجماعة ... وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولاً ؛ بل إن السنة موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها ، وصبر على من امتحنه ليفارقها ، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة ، وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر (١) فصار إماماً من أئمة السنة وعلماً من أعلامها لقيامه بإعلانها وإظهارها واطلاعه على نصوصها وآثارها ، وبيانه لخفي أسرارها لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأياً " (٢) .

ولذا لما ذكر اللالكائي في كتابه القيم " شرح أصول اعتقاد أهل السنة " أئمة السنة الذين ترسموا بالإمامة بعد رسول الله ﷺ ، بدأ بذكر أبي بكر والخلفاء الثلاثة بعده ، ثم بقية الإئمة

---

(١) منهاج السنة ٢/٦٠١-٦٠٣ تحقيق د. رشاد سالم ، ط الجامعة .

(٢) المصدر السابق : ٢/٦٠٦ .

من الصحابة ومن اتبعهم بإحسان في كثير من أمصار الإسلام [١] .

فأهل السنة إذاً هم صحابة رسول الله ﷺ، ومن اتبعهم بإحسان .

قال ابن حزم : " أهل السنة أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة فإنهم - أي أهل السنة - الصحابة - رضي الله عنهم - ومن سلك نهجهم من خيار التابعين - رحمة الله عليهم - ثم أصحاب الحديث ومن اتبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها - رحمة الله عليهم - " [٢] .

وقال شارح الطحاوية : إن أهل السنة " هم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين " [٣] .

---

(١) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة : ١/٢٩ – ٤٩ .

(٢) الفصل ٢/١٠٧

(٣) شرح الطحاوية ص٤٣٠ ، وانظر : الدين الخالص : ٣/٤٤ .

ولقد أصبح اسم السنة في عصر الأئمة من الشهرة والذيوع مما لا يحتاج معه إلى اسم آخر ، ولذا حين سئل الإمام مالك عن السنة قال : " هي ما لا اسم له غير السنة ، وتلا : ﴿ **وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ . [سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣] . [١] لما مر . " وإنما سموا أهل السنة بهذا الاسم لاتباعهم سنته ﷺ " [٢] .

ذلك أنه " ليس في فرق الأمة أكثر متابعة لأخبار رسول الله ﷺ ، وأكثر تبعاً لسنته منهم ، فاستحقوا هذا الوصف " [٣] .

وقد اختصوا باتباع آثار الرسول ﷺ ، باطناً وظاهراً ، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، واتباع وصية الرسول ﷺ ، حيث قال : " **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضُّوا عليها**

---

(١) الاعتصام للشاطبي : ١/٥٨ .

(٢) المنتقى (مختصر منهاج السنة للذهبي) ص١٨٩ .

(٣) انظر : التبصير في الدين للإسفراييني ص١٦٧ .

بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة " (١) .

وبأنهم يعلمون ويؤمنون بأن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، ويؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس ، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة (٢) .

وطريقة أهل هي الإسلام ، والإسلام اسمهم هذا هو الأصل بلا ريب ، لكن لما أخبر النبي ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ، وهي الجماعة (٣)

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٨) وأحمد في المسند ١٢٦/٢ ، ١٢٧ ، وابن ماجة (٤٢) والدارمي (٩٦) وإسناده صحيح .

(٢) ابن تيمية : الفتاوى ١٥٧/٣ .

(٣) انظر : أبو داود في (أول كتاب السنة) . " عون المعبود " : (٣٤١/١٢ ، ٣٤٢ ، رقم ٤٥٧٣) ، والدارمي : (٣٤١/٢) ، وأحمد : (١٠٢/٤) ، والحاكم : (١٢٨/١) ، والآجري في " الشريعة " : ص ١٨ . وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . " المستدرك " : (١٢٨/١) ، وقال المقبلي : (حديث افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة رواياته كثيرة يشد بعضها بعضاً بحيث لا يبقى ريبة في حاصل معناها) . " العلم الشامخ " : ص٤١٤ ، وقال ابن تيمية : (الحديث - يعني حديث افتراق الأمة - صحيح مشهور في السنن والمسانيد ...) " الفتاوى " : (٣٤٥/٣) . وقد =

= استشكل بعض الأئمة لفظة " كلها في النار إلا واحدة " قال الشوكاني : (أما زيادة كونها في النار إلا واحدة " ، فقد ضعفها جماعة من المحدثين ؛ بل قال ابن حزم : أنها موضوعة) .

وقد ناقش الألباني – رحمه الله – كلام الشوكاني هذا ، فقال : (... فإني لا أعلم أحداً من المحدثين المتقدمين ضعف هذه الزيادة ، بل إن الجماعة قد صححوها ... وأما ابن حزم فلا أدري أين ذكر ذلك ؟ وأول ما يتبادر للذهن أنه في كتاب " الفصل " وقد رجعت إليه ، وقلبت مظانه فلم أعثر عليه ، ثم إن النقل عنه مختلف ، فابن الوزير قال عنه : لا يصح والشوكاني قال عنه : أنها موضوعة ، وشتان بين النقلين " سلسلة الأحاديث الصحيحة " : (١٨/٣ ، ١٩) .

وقد رجعت لكتاب " الفصل " ، فوجدت النص الذي شك فيه الألباني - رحمه الله - في مبحث (الكلام فيمن يكفر ولا يكفر) جـ٤ ص١٦ حيث قال ابن حزم : (ذكروا حديثاً عن رسول الله ﷺ ، " أن القدرية والمرجئة مجوس هذه الأمة " ، وحديث آخر " تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة كلها في النار حاشا واحدة فهي في الجنة " ، قال أبو محمد : هذان حديثان لا يصحان من طريق الإسناد ، وما كان هكذا فليس حجة عند من يقول بخبر الواحد ، فكيف من لا يقول به) ومع أن ابن حزم يحكم بعدم صحة هذا الحديث إلا أنه يحتج في إبطال القياس بحديث " تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة أعظمها فتنة على أمتي قوم يقيسون الأمور برأيهم ، فيحلون الحرام ، ويحرمون الحلال " . " ملخص إبطال القياس " لابن حزم : ص ٦٩ بتحقيق : سعيد الأفغاني .

وقد قال الألباني في رد كلام ابن حزم : (فإن صح ذلك عن ابن حزم - وهو صحيح كما بينا - فهو مردود من وجهين :

الأول : أن النقد العلمي الحديثي قد دل على صحة هذه الزيادة فلا عبرة بقول من ضعفها .

الثاني : أن الذين صححوها أكثر وأعلم بالحديث من ابن حزم ؛ لا سيما وهو معروف عند أهل العلم بتشدده في النقد ، فلا ينبغي أن يحتج به إذا تفرد عند عدم المخالفة ، فكيف إذا خالف ؟ " سلسلة الأحاديث الصحيحة " : (١٩/٣) . وقد استشكل بعضهم هذه الزيادة من ناحية المعنى حيث أن هذه الأمة خير الأمم وأن المرجو أن يكونوا نصف أهل الجنة ؛ مع أنهم في سائر الأمم =

صار المتمسكون بالإسلام المحض هم أهل السنة والجماعة [1].

= كالشعرة البيضاء في الشعر الأسود ، فكيف يتمشى هذا ؟! وقد رفع هذا الإشكال وأجاب عليه العلامة المقبلي في " العلم الشامخ " : ص٤١٤ مما لا مجال لذكره .

ومما ينبغي ذكره أن أحاديث افتراق الأمة منها : ما لا نص فيه على الهالك ؛ وهذه قد أخرجها أكثر المحدثين ، منهم أصحاب السنن إلا النسائي وغيرهم ، ومنها ما فيه بيان أن واحدة منها ناجية ، والباقين هلكى ؛ وهذه لم يخرجها من أصحاب السنن إلا أبا داود ، وقد أخرجها أحمد وغيره - كما سبق - ، ومنها : ما تحكم بنجاة كل الفرق سوى واحدة ؛ وهي الزنادقة ، وقد حكم عليها بالوضع . انظر " كشف الخفاء " : (١/٣٦٩) ، " الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة " : ص١٦١ .

(١) ابن تيمية / الفتاوى ١٥٩/٣ .

مصادر أهل السنة في تلقي العقيدة

هي : الكتاب والسنة والإجماع .

قال البيهقي : " فأما أهل السنة فمعولهم فيما يعتقدون الكتاب والسنة "(١) .

وقال الإمام أحمد : " أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وترك البدع "(٢) .

ولذا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يجعل الالتزام بهذه المصادر الثلاثة في التلقي هو الفيصل بين أهل السنة والجماعة وغيرهم من أهل البدعة فيقول : " فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع فهو من أهل السنة والجماعة "(٣) .

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي : ص٤٦٢ .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٥٦ ، الفتاوى ١٠/٣٦٣ .

(٣) الفتاوى : ٣/٣٤٦ .

هذا ولأهل السنة مصنفات جمعوا فيها الأحاديث والآثار المتعلقة بالاعتقاد .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " وقد جمع طوائف من العلماء الأحاديث والآثار المروية في عقائد أهل السنة مثل حماد بن سلمة [١] ، وعبد الرحمن بن مهدي [٢] ، وعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي [٣] وعثمان بن

(١) الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار البصري قال الذهبي : هو أول من صنف التصانيف مع ابن أبي عروبة. وقال البيهقي : هو أحد أئمة المسلمين إلا أنه لما كبر ساء حفظه ، فلذا تركه البخاري ، وأما مسلم فاجتهد وأخرج من حديثه عن ثابت ما سمع منه قبل تغيره . توفي سنة سبع وستين ومائة وقد قارب الثمانين . (انظر : تذكرة الحفاظ : ١/٢٠٢-٢٠٣ ، وتهذيب التهذيب ٣/١٤) .

(٢) عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري اللؤلؤي الحافظ الإمام العلم قال علي بن المديني : أعلم الناس بالحديث عبد الرحمن بن مهدي . وقال الشافعي : لا أعرف له نظيراً في الدنيا ، وقال ابن حبان : كان من الحفاظ المتقنين وأهل الورع في الدين ممن حفظ وجمع وتفقه وصنف وحدث وأبى الرواية إلا عن الثقات ولد سنة ١٣٥هـ . وتوفي سنة ١٩٨هـ . انظر : تهذيب التهذيب : ٦/٢٧٩ ، حلية الأولياء ٩/٣ وما بعدها .

(٣) الإمام الحافظ شيخ الإسلام بسمرقند أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام التميمي الدارمي السمرقندي صاحب المسند العالي الذي في طبقة مسند عبد بن حميد حدث عنه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم صنف " المسند " و " التفسير " وكتاب الجامع ، وتوفي سنة =

سعيد الدارمي [١] وغيرهم في طبقتهم ".

ومثل ما بوب عليه البخاري والنسائي وابن ماجة وغيرهم في كتبهم (مما يتعلق بالعقيدة) . ومثل مصنفات الأثرم [٢] وعبد الله بن أحمد [٣]، وأبي بكر الخلال [٤]، وأبي القاسم

= (٢٥٥هـ) وكان مولده سنة (١٨١هـ) . انظر : تذكرة الحفاظ : ٣٥٤/٢ وما بعدها ، تهذيب التهذيب : ٢٩٤/٥-٢٩٦ ، وانظر : فوائد سيزكين : ١٧٢/١ .

(١) عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد السجستاني الدارمي أبو سعيد الحافظ محدث هراة وأحد الأعلام الثقات ، ومن مصنفاته " كتاب في الرد على الجهمية" و " كتاب في الرد على بشر المريسي" و" مسند كبير " وتوفي سنة (٢٨٠هـ) . وكان مولده سنة (٢٠٠هـ) وانظر طبقات الشافعية ٣٠٢/٢ وما بعدها ، مرآة الجنان : ١٩٣/٢ ، وانظر : تاريخ التراث ٣٧٠/٢-٣٧١ .

(٢) الحافظ الكبير العلامة أبو بكر أحمد بن محمد بن هاني الإسكافي صاحب الإمام أحمد حدث عنه النسائي في السنن وغيره قال الذهبي : صنف التصانيف ... له كتاب في العلل وله كتاب نفيس في السنن يدل على إمامته وسعة حفظه ، وله كتاب التاريخ ... وتوفي بعد الستين ومائتين . انظر تذكرة الحفاظ : ٥٧٠/٢ ، ٥٧١ ، تاريخ بغداد : ١١٠-١١٢ ، شذرات الذهب : ١٤١/٢ ، ١٤٢ ، وانظر تاريخ التراث : ٣٠٩/٢ .

(٣) أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي الإمام الحافظ الحجة ... من تصانيفه " كتاب السنة " و " فضائل عثمان بن عفان " وغيرهما توفي سنة (٢٩٠هـ) وكان مولده سنة (٢١٣هـ) ، انظر : طبقات الحنابلة ١٨٠/١ وما بعدها ، تهذيب التهذيب ١٤١/٥-١٤٣ ، تاريخ التراث : ٢٠٠/٢ .

(٤) الفقيه العلامة المحدث أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون البغدادي الحنبلي المشهور بالخلال صنف كتاب السنة " في ثلاث مجلدات " و " كتاب العلل " في عدة مجلدات وكتاب الجامع وهو كبير جدا... =

الطبراني (١) وأبي الشيخ الأصبهاني (٢) ، وأبي بكر الآجري (٣) ، وأبي الحسن الدارقطني (٤) ، وأبي عبد الله بن

= توفي سنة ٣١١هـ وكانت ولادته سنة ٢٣٤هـ أو ٢٣٥هـ ، انظر : تذكرة الحفاظ : ٧٨٦/٣ ، البداية والنهاية : ١٤٨/١١ ، تاريخ بغداد : ٣١٢/٥ ، ٣١٣ ، تاريخ التراث : ٢١٢/٢، ٢١٣ .

(١) الحافظ الإمام العلامة الحجة أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني صنف المعجم الكبير ، والمعجم الأوسط والمعجم الصغير وله كتاب " السنة " وكتاب " دلائل النبوة " ، وكتاب " الرد على الجهمية " وله تفسير كبير وآثار كثيرة (توفي سنة ٣٦٠هـ) وكان مولده سنة (٢٦٠هـ) انظر: تذكرة الحفاظ ٩١٢/٣ وما بعدها ، وفيات الأعيان ٤٠٧/٢ ، النجوم الزاهرة : ٥٩/٤، ٦٠ ، تاريخ التراث : ٢١٨/١ .

(٢) حافظ أصبهان الإمام أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان الأنصاري يعرف بأبي الشيخ كان مفسرا مشهورا ومحدثا ثقة ... من مؤلفاته كتاب العظمة أو عظمة الله ومخلوقاته ، وكتاب النوادر والنتف ، وأخلاق النبي ﷺ ، ومعالي حديث أبي الشيخ ، وأحاديث أبي الزبير وغيرها . توفي سنة ٣٦٩هـ ، وكان مولده سنة ٢٧٤هـ ، انظر : طبقات الحفاظ ٩٤٥/٣ ، النجوم الزاهرة : ١٣٦/٤ ، شذرات الذهب ٦٨/٣ ، تاريخ التراث : ٣٢٦/١ .

(٣) الإمام المحدث القدوة أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي مصنف كتاب " الشريعة " و " التصديق بالنظر إلى الله في الآخرة " وغيرها . توفي سنة (٣٦٠هـ) . (انظر : تذكرة الحفاظ ٣٦٩/٣ ، تاريخ بغداد : ٢٤٣/٢ ، البداية والنهاية ٢٧٠/١١ ، تاريخ التراث : ٣١٤/١ .

(٤) الإمام شيخ الإسلام أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي البغدادي الحافظ الشهير صاحب السنن قال القاضي أبو الطيب الطبري : الدارقطني أمير المؤمنين في في الحديث ، ومن آثاره " كتاب الصفات " أو " أحاديث الصفات " و " أحاديث النزول " ، " فضائل الصحابة ومناقبهم " ، كتاب فيه ما ورد من النصوص المتعلقة بـرواية الباري وغيرها ، توفي سنة ٣٨٥هـ، وكان مولده سنة =

منده [١] ، وأبي القاسم اللالكائي [٢] ، وأبي عبد الله بن بطة [٣] ، وأبي عمر الطلمنكي [٤] ، وأبي نعيم

= ٣٠٦هـ أو ٣٠٥هـ ، (تاريخ بغداد ٣٤/١٢ ، وما بعدها وانظر : تذكرة الحفاظ ٩٩١/٣ ، غاية النهاية : ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، تاريخ التراث ٥٠٩/١) .

(١) الإمام الحافظ محدث العصر أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي يعقوب إسحاق ابن الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا يحيى بن منده الأصفهاني تلقى العلم عن ١٧٠٠ شيخ في أقطار العالم الإسلامي ومن آثاره : " الرد على الجهمية ، وكتاب التوحيد ، ومعرفة أسماء الله وصفاته ، معرفة الصحابة " وغيرها ، ولد سنة ٣١٠هـ ، وقيل غير ذلك ، توفي سنة خمس وتسعين وثلاث مائة . انظر : تذكرة الحفاظ ١٠٣١/٣ ، وتاريخ التراث ٣٥٣/١ ، وما بعدها ، الوافي بالوفيات : ١٩٠/٢ ، ١٩١ ، لسان الميزان ٧٠/٥-٧٢ .

(٢) الإمام الحافظ الفقيه محدث بغداد أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبراني الرازي . قال الخطيب : كان يفهم ويحفظ وصنف كتابا في السنة وكتابا في رجال الصحيحين ، وكتابا في السنن ، توفي سنة ٤١٨هـ . [تاريخ بغداد : ٧٠/١٤ ، ٧١ ، تذكرة الحفاظ : ١٠٨٣/٣] .

(٣) عبد الله بن محمد بن محمد بن حمدان بن عمر بن عيسى بن إبراهيم بن سعد بن عتبة بن فرقد صاحب رسول الله ﷺ ، أبو عبد الله العكبري المعروف بابن بطة ومن آثاره : الإبانة الكبيرة والإبانة الصغيرة ، السنن والمناسك وغيرها توفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وكان مولده سنة ٣٠٤هـ ، انظر : طبقات الحنابلة : ١٤٤/٢-١٥٣ ، وانظر : المنهج الأحمد ص٩٦-٧٣ (وسماه فيه عبد الله) .

(٤) الحافظ الإمام المقرئ ، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى المعافري الأندلسي الطلمنكي نسبة إلى " طلمنكة " من ثغر الأندلس الشرقي ... وهو عالم أهل قرطبة روى عنه أبو عمر بن عبد البر وأبو محمد بن حزم وغيرهما . قال ابن بشكوال : وكان سيفا مجردا على أهل الأهواء والبدع . ومن آثاره : الدليل إلى معرفة الجليل مائة جزء ، وكتابه في تفسير القرآن نحو هذا ، والوصول إلى معرفة الأصول ، وفضائل مالك ، ورجال الموطأ وغيرها توفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة وكان=

الأصبهـاني (١) وأبـــي ذر الهروي (٢) وأبي بكـر البيـهقي (٣) (٤) وغيرهم .

وقـد سمـى كثير منـهم - مدوناتـهم - في هـذا البـاب باسـم السنة أي " كتاب السنة " (٥) .

= مولده سنة ٣٣٩هـ انظر الديباج المذهب ص٣٩-٤٠ ، وطبقات الحفاظ ١٠٩٨/٣ ، وبغية الملتمس ص١٥١ ، وشذرات الذهب ٢٤٣/٣-٢٤٤ .

(١) الحافظ الكبير محدث العصر أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى الأصبهاني من آثاره " حلية الأولياء " وكتاب المعتقد وفضائل الصحابة وكتاب دلائل النبوة وغيرها توفي عام ٤٣٠هـ وكانت ولادته سنة ٣٣٦هـ أو ٣٣٤هـ . انظر : تذكرة الحفاظ : ١٠٩٢/٣ ، لسان الميزان : ٢٠١/١ ، ٢٠٢ ، البداية والنهاية : ٤٥/١٢ .

(٢) الإمام العلامة الحافظ أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الأنصاري الهروي ومن آثاره : كتاب : السنة والصفات ، وكتاب الجامع ، وكتاب فضائل القرآن ، ودلائل النبوة وغيرها توفي سنة ٤٣٤هـ ، انظر : تذكرة الحفاظ : ١١٠٣/٣ ، تاريخ التراث : ٣٨٨/١ .

(٣) الإمام الحافظ العلامة شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي قال الذهبي : عمل كتابا لم يسبق إلى تحريرها منها : الأسماء والصفات وهو مجلدان ، والسنن الكبير عشر مجلدات ، والسنن والآثار ، وشعب الإيمان ، ودلائل النبوة ، والسنن الصغير ، والبعث والمعتقد ... وغيرها . توفي سنة ٤٥٨هـ ، وكان مولده في سنة ٣٨٤هـ ، انظر : تذكرة الحفاظ ١١٣٢/٣ ، وانظر : طبقات الشافعية ٨/٤-١٦ ، مرآة الجنان : ٨١/٣ ، ٨٢ ، شذرات الذهب : ٣٠٤/٣ ، ٣٠٥ .

(٤) ابن تيمية : عقيدة أهل السنة تعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي ص١٩ ، ٢٠ .

(٥) وممن سمى كتابه باسم السنة :

ومما ينبغي الإشارة إليه والتنبيه عليه أنه - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - : " قد يقع في هذه المصنفات من الأحاديث الضعيفة ما يعرفه أهل المعرفة ، وقد يروي كثير من الناس في

= ابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي (ت٢٢٥هـ) وأبو بكر الأثرم (المتقدم ذكره) وأبو داود السجستاني (صاحب السنن) ، وأبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم البصري (ت٢٧٥هـ) وأبو بكر أحمد بن علي بن سعيد المروزي (ت٢٩٢هـ) ، وأبو بكر الخلال (المتقدم ذكره) ، وأبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصبهاني العسال (ت٣٤٩هـ) ، وأبو القاسم الطبراني (السابق ذكره) ، وأبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان ويقال ابن خيان (ت٤٣٤هـ) وأبو ذر الهروي (السابق ذكره) وغيرهم ، وقد يسمون تلك المصنفات بأسماء أخرى . (انظر : ابن تيمية ، الفتوى الحموية الكبرى ، بتحقيق محمد عبد الرزاق حمزة ص١٧-٢٠ ، منهاج السنة ، بتحقيق محمد رشاد سالم ٢/٢٨٣ ، السفاريني / لوامع الأنوار البهية : ١/٢١-٢٢ ، الرسالة المستطرفة ص٢٩ ، ٣٠ ، وانظر : علي سامي النشار / مقدمة " عقائد السلف " ص٥-٧).

وأقول - مع بالغ الأسف - : أن هذه " المدونات المهمة " لم تأخذ العناية من المؤسسات التعليمية ، والباحثين في مجال العقائد الإسلامية ، وأصبح اعتماد كثير من المؤسسات الثقافية في العالم الإسلامي على كتب المتأخرين المشوبة بكثير من الأفكار الغربية والآراء الدخيلة مع أن الواجب الشرعي ، والمنهج العلمي يقتضي أن نرجع إلى الأصول قبل كل شيء ، وإنه لمن الضروري العناية بهذه الأصول وإخراج وتحقيق هذه الكنوز والتي قد ضاع بعضها وبعضها يرقد في مراكز المخطوطات في العالم وقليل منها بين أيدي الناس .

الصفات وسائر أبواب الاعتقادات وعامة أبواب الدين أحاديث كثيرة تكون موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ "[١] .

وقد أقام الله - سبحانه - من يحفظ سنة نبيه ويعتني بتمييز صحيحها من غيره ويضع المقاييس والضوابط لذلك ، وقامت دراسات دقيقة ومحكمة لمتون الأحاديث الصحيحة وأسانيدها حتى أصبحت هناك إمكانية لمعرفة الأحاديث الصحيحة من غيرها واطمأن المسلمون على سنة نبيهم حتى أن الخليفة هارون الرشيد رد على أحد الزنادقة حين تحداه بقوله : " فأين أنت من ألف حديث وضعتها عن رسول الله ﷺ ، ما فيها حرف نطق به رسول الله ﷺ " . فكان جواب الرشيد لهذا الزنديق : " فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري ، وعبد الله بن المبارك ينخلانها نخلاً فيخرجانها حرفاً حرفاً "[٢] .

---

(١) ابن تيمية : عقيدة أهل السنة - بتعليق الشيخ عبد الرزاق عفيفي ص٢٠ .

(٢) ياقوت الحموي معجم الأدباء ج١ ص٢١٢ ، ٣١٣ .

ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وإسنادها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه لعرفوا أن قد قلب من وضعه كما وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري حين ورد إلى بغداد وقصد المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال : لا أعرف هذا ولكن حدثني فلان ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح ورد كل متن إلى سنده [1] .

ولقد اعترف " الشيعة " بتثبت أئمة السنة في رواية الحديث جاء في كتاب السرائر - وهو من كتبهم المعتبرة - قال صاحب البحار : كتاب السرائر لا يخفى الوثوق عليه وعلى مؤلفه على

(١) ابن حجر ، هدي الساري ص٤٨٦ ، ابن خلدون ، المقدمة ٩/٣ ، ١٠ ، قال في " توضيح الأفكار " عن قصة البخاري مع علماء الحديث في بغداد : " وهي مشهورة أخرجها ابن عدي في مشايخ البخاري ، وأخرجها أبو بكر الخطيب في التاريخ في غير موضع وساقها الحافظ ابن حجر في نكته على ابن الصلاح بإسناده (توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار ص١٠٣ ، ١٠٤) .

أصحاب السرائر [١] جاء في هذا الكتاب " حديثهم " التالي عن بعض أصحابنا يرفعه إلى أبي عبد الله (يعنون جعفر الصادق) ... (وفيه) وقال : (أي راوي الحديث يسأل أبا عبد الله) هؤلاء (يعني بهم أئمة السنة) يأتون بالحديث مستوياً كما يسمعونه وإنا ربما قدمنا وأخرنا وزودنا ونقصنا [٢] .

فهذا إقرار منهم بخيانتهم في نقل النصوص ، وأمانة أهل السنة ودقتهم في ذلك .

وجهود أئمة السنة لا تحتاج إلى لهذا الاعتراف ولكن أوردنا هذا الاعتراف لأنه صادر من " المخالف " وإنصاف المخالف أشد وقعاً في النفس من إنصاف الموافق ... ولأن في هذا وأمثاله ما " يلجم " محاربي السنة من الروافض المعاصرين من " كتبهم "

---

(١) البحار جـ١ ص٣٣ ، ووصفوا مؤلف السرائر بـ " الإمام العلامة حبر العلماء والفقهاء وفخر الملة والحق والدين شيخ الفقهاء رئيس المذهب الفاضل الكامل عين الأعيان ونادرة الزمان " . (انظر : منتهى المقال ص٢٦ ، المقابس ص١٥ (من مقدمة البحار ج١ ص١٦٣) .

(٢) ابن إدريس / السرائر ص ٤٧٦ .

هل يستقل العقل بمعرفة أصول الدين ؟

لا تستقل عقول البشر بمعرفة أصول الدين على سبيل التفصيل لعجزها وقصورها . ولو كانت تستقل لما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب .

قال السفاريني : " لو كانت العقول مستقلة بمعرفة الحق [١] ، وأحكامه لكانت الحجة قائمة على الناس قبل بعث الرسل وإنزال الكتب واللازم باطل بالنص ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾ . فكذا الملزوم [٢] .

لكن نقول : لا تستقل على سبيل التفصيل أما على سبيل الإجمال ، فإن الله - سبحانه - فطر الخلق على ملة التوحيد - كما سيأتي تفصيله إن شاء الله - ووهبهم عقولاً يهتدون بها إلى الحق ، ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " واعلم أن عامة

---

(١) يعني على سبيل التفصيل وإلا فأصله معلوم بالفطرة .

(٢) لوامع الأنوار : ١٠٥/١ .

مسائل أصول الدين الكبار ... مما يعلم بالعقل "[١] .

الأصول التي بعث بها الرسل عليهم الصلاة والسلام :

تحدث عنها شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى[٢] ، وكذا الإمام ابن القيم في مدارج السالكين ، وعلي بن علي بن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية واتفقت أقوالهم على حصرها بثلاثة أصول وهي : التوحيد والشريعة واليوم الآخر .

وللإمام محمد بن عبد الوهاب رسالة سماها الأصول الثلاثة ، وهي : معرفة العبد ربه ، ودينه ، ونبيه محمد ﷺ .

والأصول التي ذكرها شيخ الإسلام ترجع للأصلين الأولين عند الإمام محمد بن عبد الوهاب ، أما الأصل الثالث فهو داخل ضمن الأصول الثلاثة ، لأن الموضوع حول أصول الأنبياء ، ومعلوم أنه لا تعرف الأصول ويؤمن بها إلا بعد معرفة النبي

---

(١) الفتاوى : ٢٢٩/١٩ ، ٢٣٠ .

(٢) الفتاوى : ٩٥/١٩ وما بعدها .

ﷺ، فهي داخلة في تلك الأصول ضرورة فلا تنافي بين الأقوال .

وفيما يلي نوضح أصول الأنبياء كما قرر ذلك الأئمة بمقتضى الأدلة .

يقول شيخ الإسلام : وبعثوا جميعاً - يعني الأنبياء - بأصول ثلاثة :

١ - بالدعوة إلى الله - سبحانه - ويتضمن هذا الأصل إثبات الصفات والتوحيد والقدر (وإن شئت قل معرفة المعبود بربوبيته وألوهيته ، وأسمائه ، وصفاته)[1] ، وكذا ذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه وهي القصص التي قصها على عباده ، والأمثال التي ضربها لهم .

٢- والأصل الثاني : وهو تعريف الطريق الموصل إليه ، ويتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة ، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه .

---

(١) سقط قوله : " وألوهيته " من شرح الطحاوية ، وألمح الشيخ ابن حسين في الطبعة الأولى إلى ذلك .

٣- والأصل الثالث : وهو بيان حال الناس بعد الوصول إليه ، ويتضمن الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والثواب والعقاب .

وعلى هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر ، والسعادة والفلاح موقوفة عليها ، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل ، فإن العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة (١) .

أعرف (٢) الناس بالله (أو أعلم الناس بربه) :

هم من حقق هذه الأصول فأعرف الناس بالله أعلمهم به (٣)، وأتبعهم للطريق الموصل إليه ، وأعلمهم بحال

---

(١) انظر الفتاوى : ٩٥/١٩ ، ٩٦ ، وراجع : شرح الطحاوية ص ٢ .

(٢) مصطلح المعرفة أصبح من مصطلحات الصوفية يريدون به معنى باطل ، ولكن استعمالنا لهذا المصطلح بغير المعنى الذي يريد المتصوفة كيف وسيد البشر قال: " أنا أعرفكم بالله " كما جاء في الصحيح.

(٣) هذا الأصل لم يذكر في الشرح مع أن العلم بربوبيته سبحانه وألوهيته وأسمائه وصفاته هو الأصل لتحقيق المعرفة بالله ، فلعله سقط من النساخ ، أو لدخوله في قوله : أعرف الناس بالله . لكن يحسن أن يذكر صريحاً لأنه أصل الأصول .

السالكين عند القدوم عليه ، ولا ريب أن أكمل الناس في هذا الباب هم الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، والمرسلون منهم أكمل في ذلك ، وأولو العزم من الرسل أكملهم وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد وأكمل أولي العزم الخليلان محمد ، وإبراهيم ، فلا يبلغ عبد مقامهما علماً ومعرفة، وتوحيداً، وعملاً ، وحالاً، وجهاداً ، ودعوة للخلق.

حكم المعرفة الإجمالية والتفصيلية للاعتقاد :

للذهبي - رحمه الله - رسالة مستقلة في هذه المسألة بعنوان " مسائل في طلب العلم وأقسامه " . تناول فيها أحكام تعلم أنواع العلوم العلمية والعملية وخص أحكام تعلم الاعتقاد ببيان وتفصيل [١] وعلى سبيل الإجمال يقال :

لا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ إيماناً مجملاً [٢] ، وأن يعرف من ذلك ما يلزمه معرفته

---

(١) انظر ص٢١٣ .

(٢) شرح الطحاوية .

" كالإيمان ، والصلاة ، وما عرف بالضرورة من دين الإسلام من الأوامر والنواهي "[١] .

أما معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فهو فرض كفاية ، فهو كتبليغ ما بعث الله به رسوله . وتدبر القرآن وعقله ، وفهمه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

لكن ما يجب من العلم الإجمالي والتفصيلي على كل أحد من الناس بعينه ليس محدوداً بحد معين يتساوى فيه الناس . وهذا ما يتبين في المسألة التالية :

هل ما يجب على الأعيان متنوع أم متفق ؟

أما ما يجب على أعيانهم فهذا يتنوع ويختلف لاختلاف الناس في القدرات والحاجات والمعارف والوظائف .

١ - فهو يتنوع بتنوع قدراتهم ، فقد تقرر في الشريعة أن الوجوب معلق بالاستطاعة . قال - تعالى - : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ . وقال ﷺ : " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما

---

(١) مسائل في طلب العلم للذهبي (ضمن مجموع) ص٢٠١ .

استطعتم "[١] . فلا يجب مثلاً على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك .

٢- ويختلف باختلاف حاجات الناس فمن عنده - مثلاً - شبهة فعليه من النظر والسؤال والتعلم والدعاء ما يتخلص به من درنها ومن يشتغل بالتجارة يحتاج إلى معرفة ما يحل من البيع وما يحرم بخلاف الذي لا سبب له .

وصاحب المال الزكوي ، ومن يستطيع الحج يحتاج إلى معرفة كيف يزكي وكيف يحج ، ونحو ذلك .

٣- ويتنوع بتنوع معرفتهم ، فمثلاً يجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها .

ويجب على من نشأ بدار علم وإيمان من علم بالتفصيل ما لا يجب على من نشأ بدار جهل وضلال .

---

(١) رواه مسلم (١٣٣٧) والنسائي : (٥/١١٠-١١١) وابن ماجة (٢) .

٤- وكذا يختلف ما يجب على كل أحد بعينه بتنوع ما أمر به أعيانهم - كما يعبر الشارح - أو بعبارة أخرى بتنوع مناصبهم ووظائفهم فيجب على المفتي ما لا يجب على العامي من العلم والتبليغ . ويجب على المحدِّث ما لا يجب على من سواه ممن لم تبلغه الأحاديث ، ويلزم الحاكم ما لا يلزم غيره ؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن .

فتقرر حينئذ أن ما يجب على كل أحد بعينه متنوع ومختلف .

أسباب الانحراف عن الاعتقاد الحق

يمكن إجمالها - كما يرى شيخ الإسلام - [1] في سببين :

الأول : التفريط في اتباع ما جاء به الرسول ﷺ ، أو بعبارة أخرى الإعراض عن الكتاب والسنة .

الثاني : ترك النظر والاستدلال الموصل إلى معرفة الحق .

فلما أعرضوا عن هدي السماء ، وتخلوا عن استخدام عقولهم للبحث عن الحق والوصول إليه تاهوا في دروب الضلالة ، وشعب العماية ... وبرهان ذلك في كتاب الله : ﴿ **فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بَصِيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ .

---

(١) انظر الفتاوى ٣/٣١٤ وما بعدها .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية " (١) .

وفي رواية أخرى قال ابن عباس : " من قرأ القرآن فاتبع ما فيه هداه الله من الضلالة في الدنيا ، ووقاه يوم القيامة الحساب " (٢) .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وغيره بالسند عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : " **إنها ستكون فتن.** قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : **كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من**

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي / المستدرك : ٣٨١/٢ وذكره السيوطي في الدر المنثور وقال : أخرجه ابن أبي شيبة ، والفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، ومحمد بن نصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في شعب الإيمان من طرق عن ابن عباس . (الدر المنثور : ٣١١/٤) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٦٠٣٣) .

غيره أضلّه الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم " (١) .

والشاهد من الحديث قول : **" ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله "** . قاله شيخنا عبد الرحمن البراك .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (رقم ٢٩٠٦) ج٤ ص١٧٢ ، والدارمي في سننه ص: ٨٣١ ، وأحمد في مسنده : ٧٠٣/٢ (رقم ٧٠٤) تحقيق أحمد شاكر ، والحديث في سنده مقال : قال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث (أحد رجال السند) مقال .

قال الحافظ ابن العربي المالكي : " حديث الحارث لا ينبغي أن يعول عليه ". (عارضة الأحوذي : ٣٥/١١) .

قال الحافظ ابن كثير : " والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور ، وقد تكلموا فيه ، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده ، أما أنه تعمد الكذب في الحديث فلا ، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - وقد وهم بعضهم في رفعه وهو كلام حسن صحيح ". (فضائل القرآن : ص١٥) .

قال الشيخ أحمد شاكر : " إسناده ضعيف جداً من أجل الحارث " . قال الشيخ الألباني - رحمه الله - : " إسناده ضعيف ، فيه الحارث الأعور ... ولعل أصله موقوف على علي فأخطأ الحارث فرفعه إلى النبي ﷺ (شرح الطحاوية / تخريج الألباني ص٦٨) .

وقال ﷺ : " تركت فيكم أمرين لـن تضلـوا مـا تمسـكتم بـهما كتاب الله وسُنة نبيه "[(١)] .

(١) رواه مالك في الموطأ مرسلاً ، والحاكم من حديث ابن عباس قال الألباني : إسناده حسن وله شاهد من حديث جابر خرجته في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٧٦١) .

مراتب التحريف والانحراف

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي : " وكل من التحريف والانحراف على مراتب فقد يكون كفرا ، وقد يكون فسقا ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ " .

قلت : التحريف يتعلق بالنصوص ، والانحراف يتصل بالسلوك .

فالانحراف قد يكون كفرا كالسجود للصنم أو صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله - سبحانه - .

والتحريف أيضا منه ما هو كفر كتحريف الباطنية لنصوص القرآن وأحكام الإسلام كقولهم : المراد بالشيطان في القرآن عمر (يعنون الخليفة الراشد الفاروق صهر رسول الله ﷺ ، ووزيره الذي لم يفر في الإسلام فريه أحد والذي ما رآه الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غيره الذي نشر الإسلام في ديار هؤلاء الباطنيين ، وأطفأ نار المجوسية ورفع راية التوحيد) .

وكقولهم الصيام كتمان أسرارهم والحج زيارة مشايخهم وغيرها .

والتحريف قد يكون فسقاً ، وقد يكون خطأ . قال شيخنا محمد بن صالح بن عثيمين - رحمه الله - : إذا كان تحريف معنى النص الذي يسمونه تأويلاً صادراً عن اجتهاد وحسن نية ، وله وجه في اللغة العربية فهو خطأ معفو عنه ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا كان صادراً عن هوى وتعصب وله وجه في لغة العرب فهو فسق إلا إذا تضمن عيباً في حق الله - سبحانه- فهو كفر . اهـ .

أما الانحراف فقد يكون فسقاً كارتكاب المنهيات ، وقد يكون معصية كمخالفة المأمورات ، وقد يكون خطأ إذا صدر عن جهل أونسيان .

ومما ينبه عليه هنا أن المعصية والفسق - كما قال ابن القيم رحمه الله - يطلق أحدهما على الآخر ، لكن إذا اقترنا فالفسق أخص بارتكاب النهي والمعصية أخص بمخالفة الأمر .

علم الكـــلام

تعريفه ، سبب التسمية ، نشأته ، موقف السلف منه ، نهاية من خاض فيه حتى بلغ غايته ، حكم الاطلاع على كتب أهـــل الكلام ، واستخدام مصطلحاتهم .

تعريفه :

يعرفه ابن خلدون في مقدمته فيقول : " علم الكلام : هو علم يتضمن الحِجَاجَ عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة" [١].

وقريب من هذا المعنى عرفه طاش كبرى زاده [٢] ، والتهانوي [٣] ، والجرجاني [٤] وغيرهم .

---

(١) المقدمة ص ٨٢٦ ط. بيروت ١٩٥٦م .

(٢) في كتابه مفتاح السعادة ، ومصباح دار السيادة جـ٢ ص٢٠ .

(٣) في كتابه كشاف اصطلاحات الفنون ، المجلد الأول ص٢٠ .

(٤) التعريفات .

مناقشة التعريف :

والذي يلحظ في هذا التعريف أن علم الكلام بالصفة المذكورة في التعريف ، ممدوح لا مذموم [١] في حين أن السلف قد ذموا هذا العلم وبالغوا في النهي عن الاشتغال به ، والتشنيع على أهله - كما سيأتي - فكيف يتفق هذا الأمر مع هذا التعريف .

والذي أرى أن هناك وهم والتباس سببه الخطأ في إطلاق اسم علم الكلام على علم التوحيد .

والأقرب أن يُقال في تعريف علم الكلام : هو محاولة إثبات العقائد بالطرق الجدلية التي يسمونها عقلاً عوضاً عن الأدلة

---

(١) فهو أولاً يعد علماً في حين أن أبا يوسف وآخرين من الأئمة قالوا إن العلم بالكلام هو الجهل والجهل بالكلام هو العلم كما سيأتي .

وثانياً : قال : بأنه يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية أي الدفاع عنها وحقيقته كما قال الغزالي زعزعة للعقائد الإيمانية ، وثالثاً قال بالأدلة العقلية وهي في الواقع كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية طرق جدلية يسمونها عقلاً ، ورابعاً : قال إنه يرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف والحال أنه بدعة وأهله هم المبتدعة المنحرفون عن مذهب السلف .

النقلية ، ولذا قال شيخ الإسلام : " إن الجدال (بالعقل) في علم العقائد يسمى كلاماً " [١] .

فهذا الذي يتفق وواقع فن الكلام الذي نسميه بعلم الكلام تجاوزاً وإلا فإن العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم كما قال الإمام أبو يوسف - رحمه الله - : ونقول بالطرق الجدلية التي يسمونها عقلاً ولا نقول بالعقل لأننا نعتقد أن العقل الصريح لا يناقض بحال النقل الصحيح وهم ردوا النقول الصحيحة ؛ لأنها بزعمهم تناقض العقل مع أنهم يفرون من شيء فيقعون في نظيره وفي شر منه ، مع ما يلزمهم من التحريف والتعطيل ، وهذا مسلك مخالف للعقول الصريحة .

فإذن مصطلح الكلام الوارد على ألسنة الأئمة على سبيل الذم هو كلام الجهمية ومن اتبعهم الذي نفوا به الصفات ، ولا يعني بيان الاعتقاد بمقتضى الأدلة النقلية والعقلية

---

(١) ٣٣٦/١١ .

والرد على المبتدعة فهذا من أصول الدين لا من الكلام .

سبب تسميته بعلم الكلام :

اختلف في ذلك :

قال الشهرستاني : " سمي باسم الكلام إما لأن أظهر مسألة تكلموا فيها ، وتقاتلوا عليها هي مسألة الكلام [(١)] فسمي النوع باسمها ، وإما لمقابلتهم الفلاسفة في تسميتهم فناً من فنون علمهم بالمنطق ، والمنطق والكلام مترادفان " [(٢)] .

وقال شارح الطحاوية : " وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً ، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد " [(٣)] بل قد يضر كما سيأتي .

قال الإمام مالك : " الكلام في الدين أكرهه (يعني بغير

---

(١) يعني كلام الله .

(٢) الملل : ٣٠/١ .

(٣) شرح الطحاوية : ٢٤٢/١ .

طريقة المرسلين) ولا زال أهل بلدنا يكرهون وينهون عنه ، نحو الكلام في رأي جهم ، والقدر ، وما أشبه ذلك ... لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا ما تحته عمل "[١] .

أو لأن أصحابه تكلموا حيث سكت السلف ، قال مالك بن أنس : " إياكم والبدع . قيل يا أبا عبد الله وما البدع ؟ قال : أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته ... ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان "[٢] .

نشأته :

نشأ الكلام مع المعتزلة فهم أربابه . ولذا قال طاش كبرى زاده : " اعلم أن مبدأ شيوع الكلام كان على أيدي المعتزلة والقدرية في حدود المائة من الهجرة "[٣] .

يقول أحد شيوخ المعتزلة وهو ابن الخياط : " إنهم - أي

---

(١) مختصر جامع بيان العلم وفضله ص١٥٣ .

(٢) صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام ص٢٣ .

(٣) مفتاح السعادة : ٢/٣٧ .

المعتزلة - أرباب النظر دون جميع الناس ، وأن الكلام لهم دون سواهم " [1]

وكان مبدأ الكلام في أوائل المائة الثانية (لا في حدود المائة الأولى كما يقول طاش كبرى زاده) . ولذا قال شيخ الإسلام بعد موت الحسن البصري (ت١١٠هـ) وابن سيرين بقليل ظهر عمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء (المؤسسان لمذهب الاعتزال) وصار لهم من الكلام المحدث ما خرجوا به إلى تفكير أوقعهم في تحير [2] .

موقف السلف من الكلام :

لقد ذم السلف الكلام وأهله ، وحذروا أهل الإسلام من الاشتغال به . وقد تعددت أقوالهم وتنوعت عباراتهم في ذلك :

فأبو يوسف يعده من الجهل المؤدي للزندقة فيقول : " العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ،

---

(١) الانتصار ص٧٢ .

(٢) الفتاوى : ٣٥٨/١٠ وما بعدها .

وإذا صار الرجل رأساً في الكلام ، قيل : زنديق ، أو رمي بالزندقة " .

أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته ، فإن ذلك علم نافع ، أو أراد به الإعراض عنه ، وترك الالتفات إلى اعتباره فإن ذلك بصون علم الرجل وعقله فيكون علماً بهذا الاعتبار .

وعنه أنه قال : " من طلب العلم بالكلام تزندق ... "(١) .

والشافعي يرى أنه من أكبر الذنوب ، وأن المشتغل به يستحق التعزير البليغ والتشهير ليحذر فلا يسمع له أو يُتلقى عنه.

قال : " لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلما يقوله ، ولئن يبتلى بكل ما نهى الله عنه - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يبتلى بالكلام "

وأنت عارف أن مراد الإمام الشافعي - كما يقول شيخ الإسلام - بالكلام هو كلام الجهمية الذين نفوا به الصفات(٢) .

---

(١) شرح الطحاوية : ١/١٧ .

(٢) الفتاوى : ٤٧٣/١٦ .

(لما بينا) .

ولذا علق البيهقي بعد ذكره لهذا الكلام عن الشافعي بقوله : " إنما أراد الشافعي - رحمه الله - بهذا الكلام حفص الفرد وأمثاله من أهل البدع وهذا مراده بل ما حكى عنه في ذم الكلام وأهله ... " [1] .

وقال الشافعي أيضاً : " حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام " [2] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وهم مستحقون لما قاله الشافعي من وجه ، ومن وجه آخر إذا نظرت إليهم بعين القدر - والحيرة مستولية عليهم والشيطان مستحوذ عليهم - رحمتهم وترفقت بهم ، أوتوا إذكاء وما أوتوا ذكاءاً ، وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً ، وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿ **فما أغنى عنهم**

---

(١) مناقب الشافعي : ١/٤٥٣ .

(٢) شرح الطحاوية ١/٢٤٧ .

سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدهم من شـــيء إذا كانوا يجحــدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾ [١] .

قال شيخنا محمد بن عثيمين - رحمه الله - : " فلنا فيهم نظران ، نظر من جهة الشرع نؤدبهم ونمنعهم من نشر مذهبهم ، ونظر من جهة القدر نرحمهم ونسأل الله لهم العافية ، ونحمد الله الذي عافانا من حالهم " [٢] .

وقال الإمام أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، وذكر شارح الطحاوية : بأن الأصحاب (يعني الحنفية) لم يعدوا كتب الكلام من كتب العلم ، ولم يعتبروا أهلها من أصحاب العلم وهو كقول أبي يوسف المتقدم .

يقول الشارح : " وذكر الأصحاب في الفتاوى : أنه لو أوصى لعلماء بلده لا يدخل المتكلمون " [٣] ، ولو أوصى إنسان

---

(١) الفتاوى ٤/١١٩.

(٢) فتح رب البرية ص٩٨ .

(٣) أي لا يدخلون في الوصية لأنهم ليسوا بعلماء .

أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم فأفتى السلف أن يباع ما فيها من كتب أهل الكلام [١] .

ونكتفي بهذا القدر من أقوال الأئمة في ذم الكلام وفيه غنية.

نهاية من خاض في هذا العلم حتى بلغ غايته :

كانت النهاية حيرة وندم وتذبذب واضطراب ، حيث لم يجن من قضى سنينه في الكلام سوى ضياع الأعمار ، ونفاد الجهد والطاقات ، وجني الحيرة والضلالات ، وعاد جملة منهم نادماً متحسراً ومقرراً أن مناهج الكلام لا تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، وأنهم عادوا كما جاءوا فلا طريق نافع ولا علاج ناجع إلا التلقي عن الله ورسوله [٢] .

---

(١) لأنها ليست من كتب العلم فلا تدخل في مسمى الوصية ، وقوله " بالبيع " موضع نظر إذ قرر أهل العلم أن من شروط صحة البيع : أن تكون العين مباحة النفع من غير حاجة ... وهذه الكتب لا نفع فيها بل فيها ضرر . ويتوجه أن قيل بالبيع ألا تباع إلا على القادر على حل شبهاتها العارف بفسادها المبتغي الرد على ضلالها ، لا على من يريد أن يتلقى عنها ، ولذا قال الفقهاء : لا يصح بيع عصير لمن يتخذه خمراً .

(٢) وهذه حال كل من أعرض عن المنابع الأصيلة إلى علوم أخرى (لا تدخل في دائرة العلوم =

وكلماتهم واعترافاتهم بحيرتهم وإفلاسهم ترشح بالعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

يقول الطحاوي في وصف أحوال هؤلاء : فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، موسوساً ، تائهاً شاكاً ، زائغاً .

قال الشارح : يتذبذب يضطرب ويتردد ، وهذه الحالة التي وصفها الشيخ - رحمه الله تعالى - حال كل من عدل من الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة ، وعند التعارض يتأول النص ، ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة ، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال

= المشروعة) فسيجد غب ذلك ولو بعد حين استمع - مثلاً - إلى تجربة الأستاذ سيد قطب - رحمه الله – حيث قال وهو يقرر أن الإسلام لا يتسامح في أن يتلقى المسلم أصول عقيدته ولا مقومات تصوره ... الخ من مصادر غير إسلامية قال : " إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية ما هو من تخصصه وما هو من هواياته ، ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم - وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك - [معالم في الطريق ص١٧٦] .

والشك [١]. حتى نجدهم حيارى في أصول مسائل الإلهيات حتى مسألة وجود الرب تعالى وحقيقته حاروا فيها حيرة أو جبت أن يتناقض هذا كتناقض الرازي وأن يتوقف هذا كتوقف الآمدي، ويذكرون عدة أقوال يزعمون أن الحق ينحصر فيها وهي كلها باطلة [٢].

ولذا قال ابن رشد الحفيد [٣] وهو أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم : " لم يقل أحد من الناس - يعني من هؤلاء المتكلمين - في العلوم الإلهية قولاً يعتد به .. " [٤].

وقد حكى عن طائفة من رؤوس أهل الكلام أنهم كانوا يقولون بتكافؤ الأدلة، وأن الأدلة قد تكافأت من الجانبين حتى لا

---

(١) شرح الطحاوية : ١/٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) درء تعارض العقل والنقل : ١/١٦٤ .

(٣) أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي الفيلسوف ، صنف خمسين كتاباً منها : بداية المجتهد (في الفقه) والكشف عن منهاج الأدلة في العقيدة . توفي سنة ٥٩٥هـ . ترجمته في شذرات الذهب ٤/٣٢٠ ، وسير أعلام النبلاء .

(٤) تهافت التهافت ص٨٨ ، وانظر درء تعارض العقل والنقل : ١/١٦٢ ، شرح الطحاوية : ١/٢٤٣.

يعرف الحق من الباطل ومعلوم أن هـذا إنما قالوه لما سلكوه من الأدلة [١] .

قال القرطبي : " وأفضى الكلام بكثير من أهله إلى الشك وبعضهم إلى الإلحاد ، وبعضهم إلى التهاون بوظائف العبادات ، وسبب ذلك إعراضهم عن نصوص الشارع وتطلبهم حقائق الأمور من غيره " [٢] .

وإليك أمثلة من اعترافات أساطين الكلام وشهاداتهم على أنفسهم بالحيرة والإفلاس :

أبو المعالي الجويني [٣] :

قال : " يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغت ما اشتغلت به " [٤] .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ١/١٦٤ .

(٢) المفهم للقرطبي (عن فتح الباري) ١٣/٣٥٠ .

(٣) إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني النيسابوري المتوفى سنة ٤٧٨هـ ، ترجمته في طبقات الشافعية : ٣/٢٥١-٢٨٢ ، تبيين كذب المفتري ص٢٧٨-٢٨٥ .

(٤) شرح الطحاوية : ١/٢٤٥ ، وراجع كلمات بهذا المعنى في صون المنطق ص١٨٣ .

وقال عند موته : " لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي ، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور "(١) .

الغزالي (٢) :

انتهى في آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ ، فمات والبخاري على صدره (٣) وقال عن مضار الكلام وما يقال عن منفعته ما يلي :

---

(١) شرح الطحاوية : ٢٤٥/١ ، وانظر تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٩٠ ، وصون المنطق ص١٨٣ ، ١٨٤ ، فتح الباري : ٣٥٠/١٣ .

(٢) أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي المعروف بالغزالي صاحب المصنفات الكثيرة . توفي سنة ٥٠٥هـ ترجمته في وفيات الأعيان : ٥٨٦/١-٥٨٨ ، المنتظم لابن الجوزي : ١٦٩/٩ ، ١٧٠ .

(٣) شرح الطحاوية : ٢٤٣/١ ، ٢٤٤ ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل : ١٦٢/١ ، وراجع فيصل التفرقة بين الإيمان والزندقة للغزالي ص٧٩-٨٣ ، الإحياء : ٩٤/١-٩٧ ، صون المنطق للسيوطي ص١٨٤ .

" فأما مضرته ، فإثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وإزالتها عن الحزم والتصميم ، وذلك مما يحصل بالابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص فهذا ضرره في اعتقاد الحق ، وله ضرر في تأكيد اعتقاد المبتدعة ، وتثبيتها في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل ، وأما منفعته فقد يظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ، ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف . قال (الغزالي) : وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم تلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخرى تناسب علم الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا

الوجه مسدود " (١) .

قال شارح الطحاوية بعد نقله لهذا الكلام : " وكلام مثله في ذلك حجة بالغة " (٢) .

الشهرستاني (٣) :

قال : " إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم حيث أنشد :

لقد طفت في تلك المعاهد كلها

وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر

على ذقن أو قارعا سن نادم (٤)

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين : ١/٢٣٧ ، ٢٣٨ ، وشرح الطحاوية : ١/١٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) شرح الطحاوية : ١/٢٣٨ .

(٣) هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح المعروف بالشهرستاني ، قال السبكي : كان إماما مبرزا، مقدما في علم الكلام والنظر ، برع في الفقه والأصول والكلام ، من تصانيفه : " الملل والنحل " و " نهاية الأقدام " توفي سنة ٥٤٨هـ . ترجمته في : طبقات الشافعية ٦/١٢٨-١٣٠ ، ومرآة الجنان ٣/٢٨٤-٢٩٠ .

(٤) نهاية الأقدام للشهرستاني ص٣، درء تعارض العقل والنقل : ١/١٥٩ ، شرح الطحاوية : ١/٢٤٤-٢٤٥ .

وقد رد على هذين البيتين محمد بن إسماعيل الأمير فقال :

لعلك أهملت الطواف بمعهد

الرسول ومن لاقاه من كل عالم

فما حار من يهدي بهدي محمد

ولست تراه قارعا سن نادم [(١)]

الرازي [(٢)] :

قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات :

نهاية إقدام العقول عقال

وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا

وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

---

(١) هذان البيتان بخط الأمير بهامش أصل درء تعارض العقل والنقل . انظر ١٥٩/١ .

(٢) أبو عبد الله محمد بن الحسن بن الحسين التيمي البكري يعرف بابن الخطيب ، من أئمة الأشاعرة توفي سنة ٦٠٦هـ ، ترجمته في وفيات الأعيان ، ٣٨١/٣-٣٨٥ ، لسان الميزان ٢٤٦/٤-٢٤٩ .

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ولقيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في الآيات : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [سورة طه ، الآية : ٥] ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾. [سورة فاطر ، الآية : ١٠] . واقرأ في النفي : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ [سورة الشورى ، الآية ١١]. ﴿ **ولا يحيطون به علما** ﴾ [سورة طه ، الآية ١١٠]. ﴿ **هل تعلم له سميا** ﴾ [سورة مريم ، الآية : ٦٥]. ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي "(١) .

الآمدي (٢) :

قال : " أمعنت النظر في الكلام ، وما استفدت منه شيئا إلا ما عليه العوام "(٣) .

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ١/١٥٩ ، ١٦٠ ، الفتاوى : ٤/٧١ ، شرح الطحاوية : ١/٢٤٤ ، طبقات الشافعية ، لابن قاضي شهبة : ٢/٨٢ ، ٨٣ .

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن سالم الثعلبي ، سيف الدين الآمدي ، أحد أئمة الأشاعرة له مصنفات كثيرة توفي سنة ٦٣١ هـ ، ترجمته في : وفيات الأعيان ٢/٤٥٥ ، ٤٥٦ ، شذرات الذهب : ٣/٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٣/٢٦٢ .

ولذا كان كثيرا ما ينتهي في بحوثه في المسائل الكبار إلى التوقف وعدم الجزم برأي ، وقد نقل د. رشاد سالم بعض نصوص من كتابه أبكار الأفكار التي ينتهي فيها إلى هذه النهاية [1] .

الخونجي [2] :

قال شيخ الإسلام : " بلغني بإسناد متصل عن بعض رؤوسهم وهو الخونجي صاحب كشف الأسرار في المنطق وهو كثير منهم غاية في الفن أنه قال عند الموت : أموت وما علمت شيئا إلا أن الممكن يفتقر إلى المرجح ، ثم قال : الافتقار وصف سلبي ، أموت وما عرفت شيئا " [3] .

---

(١) انظرها في هامش درء تعارض العقل والنقل ١٦٤/١ .

(٢) محمد بن ناماور (أو بامادرين) بن عبد الله بن عبد الملك أبو عبد الله الخونجي ولي القضاء بمصر ، توفي سنة٦٤٦هـ ، ترجمته في عيون الأنباء ١٢٠/٢ ، شذرات الذهب ٢٣٦/٥ ، ذيل الروضتين ص١٨٢ ، الأعلام ٣٤٤/٧ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ٢٦٢/٣ جـ١ ص١٦٢ ، الرد على المنطقيين ص١١٤ ، جهد القريحة للسيوطي [الملحق بصون المنطق] ص٢٢٨ .

شمس الدين الخسروشاهي [١] :

قال لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما فقال : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون ، فقال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ أو كما قال ، قال نعم ، فقال : اشكر الله على هذه النعمة ، لكني والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد ، وبكى حتى أخضل لحيته [٢] .

ابن واصل الحموي [٣] :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " حدثني من قرأ على ابن واصل الحموي- وهو من أفضل أهل زمانه في الكلام والفلسفة- أنه قال : أبيت بالليل وأستلقي على ظهري وأضع الملحفة على

---

(١) عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي (نسبة إلى خسروشاه قرية بمرو) من تلامذة الرازي توفي سنة ٦٥٢هـ ، ترجمته في طبقات الشافعية .

(٢) شرح الطحاوية : ٢٤٥/١ ، ٢٤٦ .

(٣) محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل الحموي ، مؤرخ ، عالم بالمنطق ، من كتبه : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، توفي سنة ٦٩٧هـ بحماة . ترجمته في : بغية الوعاة ص٤٤٠ ، الوافي بالوفيات ٨٥/٣ ، معجم المؤلفين ١٦/١٠ .

وجهي وأبيت أقابل أدلة هؤلاء بأدلة هؤلاء ، وبالعكس وأصبح وما ترجح عندي شيء "[١] .

قال شيخ الإسلام : " كأنه يعني أدلة المتكلمين والفلاسفة "[٢] .

ولهذا انتهى أمره إلى كثرة النظر في الهيئة ، لكونه تبين له فيه من العلم ما لم يتبين له من العلوم الإلهية[٣] .

إبراهيم الجعبري[٤] :

قال : " بت البارحة أفكر إلى الصباح في دليل على التوحيد سالم عن المعارض فما وجدته " . يعني من أدلة المتكلمين لأنها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً كما قال الرازي .

قال شيخ الإسلام بعد أن عرض أمثال هذه الاعترافات :

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ٢٦٣/٣ ، ٢٦٤ .

(٢) الموضع نفسه من المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق : ١٦٥/١ .

(٤) أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري المعروف بابن السراج ، أحد فقهاء الشافعية ، توفي سنة ٧٣٢هـ ، ترجمته في طبقات الشافعية : ٣٩٨/٩ ، ٣٩٩ ، الدرر الكامنة : ٥١/١ ، ٥٢ ، الأعلام : ٤٩/١ .

" ولو جمعت ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء كفلان وفلان ، لكان شيئاً كثيراً ، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكهم أكثر وأكثر ، وذلك لأن الهدى هو فيما بعث الله به رسله فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً فكيف بمن عارضه بما يناقضه وقدَّم مناقضه عليه " (١)

وهكذا انتهى الأمر بهؤلاء إلى الإفلاس ونكصوا على أعقابهم لم ينالوا خيراً (٢) من هذا العلم فمنهم من انتكس فشرد عن أمر به .

قال شيخ الإسلام : " ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء لما يتبين له

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٦ .

(٢) ولكن أثرهم لم ينته عند المتأخرين ، ولم يعتبر كثير من المسلمين بهذه النهاية ولا تزال أكثر المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي - إلى اليوم - تدرس المعتقد وفق المنهج الكلامي ... ولذا شهد الأستاذ محمد الغزالي عن تجربته في دراسة العقيدة في مؤسسات من أكبر مؤسسات التعليم في العالم الإسلامي بل هي قدوة ورائدة بقوله : " وقد كنت أرقب - عن كثب - ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة ، فما كنت أجد فارقاً يذكر - لدى السامعين - بينها وبين شروح المعادلات الجبرية مثلاً كلاهما ترويض للعقل مبتوت الصلة بالفؤاد : فكان الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم " لوجب الوجود " ولا يستشعر في قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال ... فهكذا تدرس العقيدة ؟ [عقيدة المسلم ص٨] .

الهدى في طريقه نكص على عقبيه [١] فاشتغل باتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه أو رياسته وماله ونحو لك لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه وينشرح له صدره ، وفي الحديث المأثور عن النبي ﷺ : " **أن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن** " [٢] . وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع منهم هذا وهذا اتباع شهوات الغي ، ومضلات الفتن ، فيكون فيهم من الضلال والغيِّ بقدر

---

(١) وقد يعود بعضهم إلى طريقة السلف ، وتكون النهاية المحيرة التي وصل إليها من أسباب عودته وأوبته وتعلقه بمعتقد السلف وحبه له وهذا كحال الإمام الشوكاني رحمه الله [المتوفى سنة ١٢٥٠هـ صاحب فتح القدير ونيل الأوطار وغيرهما من الآثار النافعة] حيث قال : " وها أنا ذا أخبرك عن نفسي ، وأوضحت لك ما وقعت فيه من أمسي ، فإني في أيام الطلب وعنفوان الشباب شغلت بهذا العلم الذي سموه تارة علم الكلام وتارة علم التوحيد ، وتارة علم أصول الدين وأكببت على مؤلفات الطوائف المختلفة منهم ورمت بالرجوع بفائدة ، والعود بعائدة ، فلم أظفر من ذلك بغير الخيبة والحيرة ، وكان ذلك من الأسباب التي حببت إليّ مذهب السلف ، [رسالة التحف في مذهب السلف ص١٠] .

(٢) انظر : المسند ٤/ ٤٢٠ ، مجمع الزوائد : ٧/ ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، قال الهيثمي : " رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح " .

ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله "[١] .

قال شارح الطحاوية - بعد أن استعرض حال هؤلاء المتكلمين وحيرتهم - :

" والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب صلوات الله عليه وسلامه يقول إذا قام من الليل يفتتح صلاته : " **اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف**[٢] **فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم** " خرجه مسلم[٣] .

توسل[٤] ﷺ إلى ربه بربوبية جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، إذ حياة القلب بالهداية ،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل : ١/١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) في الأصول : اختلفوا ، والمثبت من " صحيح مسلم " .

(٣) هو في " صحيح مسلم " (٧٧٠) ، وأخرجه الترمذي (٣٤١٦) ، وأبو داود (٧٧٦) ، والنسائي ٣/٢١٢ ، ٢١٣ ، والبغوي في " شرح السنة " برقم (٩٥٢) من حديث عائشة ، رضي الله عنها .

(٤) في (د) توجه .

وقد وكل الله - سبحانه - هؤلاء الثلاثة بالحياة : فجبريل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب ، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان ، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها ، فالتوسل[1] إلى الله – سبحانه – بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة ، له تأثير عظيم في حصول المطلوب . والله المستعان .

---

(١) في الأصول : بالتوسل ، والمثبت من مطبوعة مكة .

حكم الاطلاع على كتب أهل الكلام واستخدام مصطلحاتهم

يذكر شيخ الإسلام أنه لا يجوز الاطلاع على كتب أهل الكلام إلا لمن كان قادراً على حل شبهاتها . " فمن كان عارفاً بحل شبهاتهم بيَّنها ، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره** ﴾ . ومن يتكلم في الله وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة فهو من الخائضين في آيات الله بالباطل "[1] .

أقول : فلا يجوز النظر في كتب أهل الكلام صيانة للإيمان لأنها تورث الشك والزندقة وحماية للعقل وحفظاً الوقت ، وتوفيراً للجهد والطاقة ليصرف ذلك فيما ينفع لأن العلم بالكلام هو الجهل غير أنه عند الحاجة إلى الرد عليهم فيجوز

(١) الفتاوى : ٥/٢٦٠ ، ٢٦١ .

النظر فيها لمن يمتلك القدرة على معرفة فسادها ، والرد على شبهاتها .

ولا بأس باستخدام مصطلحاتهم إذا احتيج إلى ذلك وكانت المعاني صحيحة كما قرر ذلك أهل العلم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وأما مخاطبة أهل اصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه - إذا احتيج إلى ذلك ، وكانت المعاني صحيحة - كمخاطبة العجم : من الروم ، والفرس ، والترك بلغتهم وعرفهم ، فإن هذا جائز حسن للحاجة .

وإنما كرهه الأئمة إذا لم يحتج إليه ، ولهذا قال النبي ﷺ لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص - وكانت صغيرة ولدت بأرض الحبشة ، لأن أباها كان من المهاجرين إليها فقال لها - : " **يا أم خالد هذا سنا** " . والسنا بلسان الحبشة الحسن . لأنها كانت من أهل هذه اللغة. وكذلك يُترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهيمه إياه بالترجمة ، وكذلك يقرأ المسلم ما يحتاج

إليه من كتب الأمم ، وكلامهم بلغتهم ، ويترجمها بالعربية ، كما أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت أن يتعلم كتاب اليهود ليقرأ له ، ويكتب له ذلك حيث لم يأمن من اليهود عليه .

فالسلف والأئمة لم يكرهوا الكلام لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المولدة كلفظ " الجوهر " و " العرض " و " الجسم" وغير ذلك ؛ بل لأن المعاني التي يعبرون عنها بهذا العبارات فيها من الباطل المذموم في الأدلة والأحكام ما يجب النهي عنه لاشتمال هذه الألفاظ على معاني مجملة في النفي والإثبات . كما قال الإمام أحمد في وصفه لأهل البدع فقال : هم مختلفون في الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويلبسون على جهال الناس بما يتكلمون به من المتشابه .

فإذا عرفت المعاني التي يقصدونها بأمثال هذه العبارات ، ووزنت بالكتاب والسنة : بحيث يثبت الحق الذي أثبته الكتاب والسنة ، وينفي الباطل الذي نفاه الكتاب والسنة كان ذلك هو

الحق ؛ بخلاف ما سلكه أهل الأهواء من التكلم بهذه الألفاظ : نفياً وإثباتاً : في الوسائل والمسائل ، من غير بيان التفصيل والتقسيم الذي هو الصراط المستقيم وهذا من مثارات الشبهة .

فإنه لا يوجد في كلام النبي ﷺ ولا أحد من الصحابة والتابعين ، ولا أحد من الأئمة المتبوعين : أنه علق بمسمى لفظ " الجوهر " و " الجسم " و " التحيز " و " العرض " ونحو ذلك شيئاً من أصول الدين : لا الدلائل ولا المسائل ؛ والمتكلمون بهذه العبارات يختلف مرادهم بها . تارة لاختلاف الوضع ، وتارة لاختلافهم في المعنى الذي هو مدلول اللفظ كمن يقول " الجسم" هو المؤلف ، ثم يتنازعون هل هو الجوهر بشرط تأليفه ؟ أو الجوهران فصاعداً ؟ أو الستة ؟ أو الثمانية ؟ أو غير ذلك ؟ ومن يقول هو الذي يمكن فرض الأبعاد الثلاثة فيه ، وأنه مركب من المادة والصورة ، ومن يقول هو الموجود ، أو الموجود القائم بنفسه ؛ وأن الموجود لا يكون إلا كذلك .

والسلف والأئمة الذين ذموا وبدعوا الكلام في الجوهر

والجسم والعرض تضمن كلامهم ذم من يدخل المعاني التي يقصدها هؤلاء بهذه الألفاظ في أصول الدين : في دلائله ، وفي مسائله : نفيا وإثباتا .

فأما إذا عرف المعاني الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة ، وعبر عنها لمن لم يفهم بهذه الألفاظ : ليتبين ما وافق الحق من معاني هؤلاء ، وما خالفه . فهذا عظيم المنفعة ، وهو من الحكم بالكتاب بين الناس فيما اختلفوا فيه كما قال - تعالى - : ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ . وهو مثل الحكم بين سائر الأمم بالكتاب فيما اختلفوا فيه من المعاني التي يعبرون عنها بوضعهم وعرفهم ، وذلك يحتاج إلى معرفة معاني الكتاب والسنة ، ومعرفة معاني هؤلاء بألفاظهم ، ثم اعتبار هذه المعاني بهذه الألفاظ ليظهر الموافق والمخالف "[١] .

---

(١) الفتاوى : ٣/٣٠٦-٣٠٨ .

التأويل والتحـــريف

كلما بعد العهد ظهرت البدع وكثر التحريف . قال ﷺ : " **لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه** " [١] .

وقد سمى أهل البدع تحريفهم تأويلا ليقبل وخفي هذا المكر على جملة من الناس حتى قال الشارح : " وقل من يهتدي إلى الفرق بين التحريف والتأويل . وذلك لما في لفظ التأويل " من اشتراك بين معان ثلاثة كما سيأتي :

التأويل :

لغة : من الأول وهو الرجوع [٢] .

واصطلاحا : تبيين حقيقة الشيء أو معناه .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الفتن باب لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه من حديث أنس (ج٨ ص٨٩-٩٠) .

(٢) قال الإمام الطبري : التأويل في كلام العرب هو التفسير والمرجع والمصير (تفسير الطبري : ١٨٤/٣) وستجد أن التأويل في الكتاب والسنة وعند سلف الأمة لا يخرج عن هذين المعنيين فهو عندهم بمعنى التفسير ، أو الحقيقة التي يصير إليها الكلام ويرجع .

ذلك أن لفظ التأويل فيه اشتراك :

- بين ما عناه الله في القرآن .

- وبين ما كان يطلقه طوائف من السلف .

- وبين اصطلاح طوائف من المتأخرين (١) .

أما المعنى الأول : وهو الذي يراد بلفظ التأويل في الكتاب والسنة فهو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام .

والكلام نوعان :

١- إنشاء .

٢- وإخبار .

فالأول : **أعني الإنشاء** : هو الأمر والنهي والإباحة وتأويل الأمر والنهي نفس فعل المأمور ، ونفس ترك المحظور ، كما في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : " **سبحانك اللهم ربنا**

---

(١) انظر : الفتاوى ١٣/٢٨٤ ، ٢٨٥ .

وبحمدك اللهم اغفر لي " يتأول القرآن [١] فكان هذا الكلام تأويل قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ .

قال ابن عيينة : السنة تأويل الأمر والنهي . وقال أبو عبيد لما ذكر اختلاف الفقهاء ، وأهل اللغة في نهي النبي ﷺ عن اشتمال الصماء قال : والفقهاء أعلم بالتأويل يقول : هم أعلم بتأويل ما أمر الله به وما نهى عنه ، فيعرفون أعيان الأفعال الموجودة التي أمر بها ، وأعيان الأفعال المحظورة التي نهى عنها .

فالتأويل هنا ليس بمعنى التفسير الذي هو شرح اللفظ وكشف معناه أي تفسير كلام بكلام بل التأويل هنا هو فعل المأمور به وترك المنهي ليس هو من جنس الكلام .

والنوع الثاني : أعني الخبر : كإخبار الرب عن نفسه - تعالى - بأسمائه وصفاته ، فتأويلها هو الحقيقة التي انفرد بها الله - تعالى - بعلمه وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف :

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٢٤٧، ٢٢٣) ومسلم (٤٨٤) وأبو داود (٨٧٧) ، والنسائي : (٢/٢١٩) ماجة (١٤٣٧) وأحمد في المسند (٦/٤٣، ١٩٠) .

الاستواء معلوم والكيف مجهول ، وإخباره عما ذكره لعباده من الوعد والوعيد وهذا هو التأويل المذكور في قوله : ﴿ **ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ .

وقوله : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله** ﴾. فإن ما وعدوا به في القرآن لما يأتهم بعد وسوف يأتيهم .

فالتفسير هو الإحاطة بعلمه ، والتأويل هو نفس ما وعدوا به إذا أتاهم فهم كذبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، وقد يحيط الناس بعلمه ولما يأتهم تأويله ، فالرسول ﷺ يحيط بعلم ما أنزل الله عليه ، وإن كان تأويله لم يأت به بعد .

وفي الحديث عن النبي ﷺ لما نزل قوله : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم** ﴾ . الآية . قال : إنها

كائنة ولم يأت تأويلها بعد .

ومنه قول كثير من السلف في آيات : هذه ذهب تأويلها ، وهذه لم يأت تأويلها ، مثل ما روى أبو الأشهب عن الحسن والربيع عن أبي العالية أن هذه الآية قرئت على ابن مسعود : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم** ﴾ . الآية . فقال ابن مسعود : ليس هذا بزمانها قولوها ما قبلت منكم . فإذا ردت عليكم فعليكم أنفسكم ، ثم قال : إن القرآن نزل حيث نزل فمنه آي قد مضى تأويلهن على عهد النبي ﷺ ، ومنه آي وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد اليوم ، ومنه آي يقع تأويلهن في آخر الزمان ، ومنه آي يقع تأويلهن بعد القيامة ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة ، ولم تلبسوا شيئاً ، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا ، فإذا اختلفت القلوب والأهواء ، وألبستم شيعاً ، وذاق بعضكم بأس بعض فامرؤ ونفسه فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية .

قال شيخ الإسلام بعد سياق هذا النص :

فابن مسعود - رضي الله عنه - قد ذكر في هذا الكلام تأويل الأمر وتأويل الخبر فهذه الآية عليكم أنفسكم من باب الأمر وقد تبين أن تأويل الخبر هو وجود المخبر به ، وتأويل الأمر هو فعل المأمور به "

أما المعنى الثاني للتأويل فهو : التفسير .

وهذا المعنى هو الذي يريده كثير من المفسرين من لفظ التأويل كابن جرير الطبري وغيره .

قال شيخ الإسلام : " فأما قدماء المفسرين فلفظ التأويل والتفسير عندهم سواء "[١] .

ولهذا قال مجاهد إمام أهل التفسير : " إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه ، فإنه أراد بذلك تفسيره وبيان معانيه وهذا مما يعلمه الراسخون "[٢]

---

(١) الفتاوى : ١٧/٣٦٧ .

(٢) الفتاوى ٤/٦٩

وهو موافق لوقف من وقف من السلف على قوله : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم** ﴾ . كما نقل ذلك عن ابن عباس ، ومجاهد ، ومحمد بن جعفر بن الزبير ، ومحمد بن إسحاق ، وابن قتيبة وغيرهم ، فإذن تفسير الكلام وبيان معناه يسمى تأويلا . وهذا النوع يحمد حقه ويرد باطله .

فهذا المعنيان للتأويل (التأويل بمعنى الحقيقة ، والتأويل بمعنى التفسير) هما المرادان بالتأويل في لفظ السلف ، ولكن أحدث المتأخرون المعنى الثالث وهو :

المعنى الثالث للتأويل :

التأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين : هو صرف اللفظ من الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك .

وهذا هو التأويل الذي يتنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية فالتأويل الصحيح منه : الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد .

والحق أن ما دل عليه دليل هو من قبيل التفسير . وما لم يدل عليه الدليل فهو تحريف فلا حاجة إذن لهذا القسم . والله أعلم [١] .

بيان ما يقبل التأويل من الكلام وما لا يقبل :

ولا شك أن من الكلام ما يقبل التأويل ومنه ما لا يقبل ، ذلك أن الكلام ثلاثة أنواع : منه ما هو نص في المراد ، ومنه ما هو ظاهر في المراد ، ومنه ما هو محتمل [٢] محتاج إلى بيان ،

---

(١) واقرأ - إن شئت - ما كتبه شيخ الإسلام عن معاني التأويل في الفتاوى :

ج٥ ص٣٥ ، ٣٦ .

ج٣ ص٥٥ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٦ .

ج٤ ص٦٨ ، ٦٩ .

ج١٣ ص٢٨٤ — ٣٩٤ .

ج١٦ ص٤٠٧-٤٢٢ .

ج١٧ ص٣٦٣-٤٤٣ .

(٢) تقرر في الأصول أن الكلام إن دل على معنى لا يحتمل غيره فهو المسمى نصا كقوله مثلا (تلك عشرة كاملة) وإذا كان محتملا لمعنيين أو أكثر فلا يخلو من حالتين : إما أن يكون أحد المعنيين أرجح في المراد من الآخر فالراجح يسمى الظاهر ويجب حمل الكلام عليه دون المرجوح إلا لدليل صارف عنه كقولك مثلا : رأيت أسدا ، فهذا القول ظاهر في الحيوان المفترس لأن اسمه الذي وضع له محتمل احتمالا مرجوحا في الرجل الشجاع فيجب حمله على الظاهر إلا إذا وجدت قرينة صارفة =

فالأول يستحيل دخول التأويل فيه إذ تأويله كذب ظاهر على المتكلم وهذا شأن عامة نصوص القرآن الصريحة في معناها خصوصا آيات الصفات والتوحيد [١] (ولهذا لم يتأول الصحابة آيات الصفات وأحاديثها ولم يختلفوا في تفسيرها) [٢] ، والثاني ينظر في وروده فإن أطرد استعماله على وجه واحد استحال تأويله بما يخالف ظاهره ؛ لأن التأويل إنما يكون لموضع جاء خارجا عن نظائره متفردا عنها فيؤول حتى يرد إلى نظائره، مثال ذلك قوله : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ . ثم استوى على العرش في جمع موارده من أولها إلى آخرها على هذا اللفظ فتأويله باستولى باطل ، وإنما كان يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ استولى ثم يخرج موضع من نظائره ويرد بلفظ استوى فهذا

= لذلك ، وإن كان الاحتمال متساويا بين المعنيين فهذا الذي يسمى في الاصطلاح المجمل كقولك (عدا اللصوص البارحة على عين زيد) فهذا لفظ مجمل إذ يحتمل أن يكون المراد عينه الباصرة عوروها ، أو عينه الجارية غوروها ، أو عين ذهبه وفضته سرقوها فهذا مجمل وحكم المجمل يتوقف فيه حتى يرد الدليل المبين .

(١) مختصر الصواعق ١/ ٤٤ .

(٢) الفتاوى : ٦/ ٣٩٤ .

كان يصح تأويله باستولى فتفطن لهذا الموضع واجعلـه فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم ويجوز تأويله ونظير ذلك : " **ينزل ربنـــا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقـــول ...**" في نحو ثلاثين حديثا كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب – تعالى - ولم يجئ في موضع واحد بقوله : " ينزل ملك ربنا " حتى يحمل ما خرج عن نظائره عليه ، والثالث وهو المجمل الذي أحيل بيانه على خطاب آخر فهذا أيضا لا يجوز تأويله إلا بالخطاب الذي بينه وقد يكون بيانه معه وقد يكون بيانه منفصلا عنه [1] .

---

(١) مختصر الصواعق ١/ ٤٤ وما بعدها .

التحـــريف

لغـة : التغيـير والإمالـة ، وفي المصبـاح تحريـف الكـلام : العدول به عن جهته .

وفي الاصطلاح : هـو تغيير النص لفظاً أو معنى وبعضهم يقول : تغيير ألفاظ الأسماء والصفات أو تغيـير معانيها [1] وهـذا أخص من الأول .

أنواعه وأمثلته :

التحريف نوعان :

تحريـف لفظـي ، كمحاولـة بعـض المبتدعـة قـراءة قولـه - تعالى -: ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ بنصـب لفـظ الجلالـة ، وذلـك لنفـي صفـة الكـلام عـن الله - سبحانه - وجعـل الكـلام لموسى .

ويروى أن جهمياً طلب من أبي عمرو بن العـلاء أن يقـــرأ

---

(١) الرشيد / التنبيهات السنية ص٢٢ .

﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ بنصب لفظ الجلالة ، فقال له : هبني فعلت ذلك فما تصنع بقوله - تعالى - : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ . [سورة الأعراف ، الآية ١٤٣] فبهت الجهمي .

وللتحريف اللفظي صور أربع ؛ لأنه إما بزيادة أو نقصان وإما بتغيير حركة إعرابية وإما غير إعرابية (١) .

الثاني : تحريف معنوي وهو إبقاء اللفظ بلا تغيير وصرف معناه عن المراد به مثل تأويل الاستواء بالاستيلاء (٢) .

وبعد فإن منهج الخلف هو هذا التحريف الذي سموه تأويلاً ليقبل ويروج ، ومادتهم وعلمهم في الغالب هو ذاك الكلام المذموم وثمرته هو الإفلاس والحيرة الذي شهدت به أساطينهم ، وكان علم السلف هو المشعل الذي يضيء للأمة معالم طريقها ، لأنه الأسلم ، والأعلم والأحكم .

---

(١) مختصر الصواعق .

(٢) ورأيت في بعض المقررات الدراسية ذكر هذا المثال للنوع الأول ، وهو التحريف اللفظي ، والحقيقة أن هذا تحريف معنوي لا لفظي ، لأنه تأويل لمعنى الاستواء وليس تحريفاً للفظه .

فضل علم السلف على علم الخلف

السلف هم القرون الثلاثة المفضلة ، هذا حسب المفهوم التاريخي لمصطلح السلف ، كما يطلق السلف على من سار على سبيلهم وأخذ بمعتقدهم (حسب المفهوم العقدي لمصطلح السلف) .

والحقيقة أنه لا مجال للمقارنة بين الصفوة المختارة المفضلة وبين الخلف بعد قوله ﷺ : " **خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** " ، فهذا يفيد أن السلف خير في العلم والاعتقاد والإيمان والقول والعمل والجهاد والدعوة .

فهي خيرية مطلقة ، ولكن سبب وجود الحاجة لتجلية هذه الحقيقة أن فئات من المشتغلين بعلم الكلام أخذهم الغرور فقالوا : إن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم .

وكذلك فئات من المنتسبين للفقه ركبهم الزهو فقالوا : إن السلف لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده اشتغالاً منهم

بغيره ، والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه .

فجميع هؤلاء محجوبون بحجاب من الجهل والضلال والكبر عن معرفة قدر السلف وعلومهم .

وحسبك لبيان قدر السلف شهادة الله وشهادة رسوله ﷺ لهم بالفضل .

وحسبك أن علم السلف لاعتماده على الكتاب والسنة جمع الأمة ، وأقام حضارة لم تعرف لها الدنيا مثيلاً في فترة زمنية قياسية لم يوجد لها شبيه في تاريخ الأمم وعلم الخلف كان له آثاره السلبية في المجال الاعتقادي والعملي ؛ لأن من سماته كثرة الكلام وقلة البركة ، والتكلف والسطحية ، والاشتغال بالأطراف بخلاف علم السلف ، فهو قليل كثير البركة يهتم بالأصول والقواعد وينأى عن التكلف ويتميز بالأصالة والعمق والشمول والاهتمام مما تحته عمل وما وراءه ثمره .

واقرأ ما سطره العلامة ابن رجب في كتابه فضل علم السلف .

وراجع في الرد على مقالة المتكلفين ومن حذا حذوهم الحموية (ضمن مجموع الفتاوى جـ٥ ص١-١١) .

أو فتح رب البرية للشيخ محمد بن عثيمين - رحمه الله - ص٥٧-٦٠ (ضمن رسائل في العقيدة للشيخ ، ط. دار طيبة) .

قال شيخ الإسلام : " ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد وغيرها من كل فضيلة أن خيرها القرن الأول ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من غير وجه ، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلة من علم وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام وأضله الله على علم . كما قال عبد الله بن مسعود : " من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد : أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقهم علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ما

عرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم " .

وقال غيره : " عليكم بآثار من سلف فإنهم جاؤوا بما يكفي وما يشفي ولم يحدث بعدهم خير كامن لم يعلموه " .

هذا وقد قال ﷺ : " **لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم** " . فكيف يحدث لنا زمان فيه الخير في أعظم المعلومات وهو معرفة الله تعالى ؟ هذا لا يكون أبداً .

وما أحسن ما قاله الشافعي - رحمه الله - : " هم فوقنا في كل علم وعقل ودين وفضل ، وكل سبب ينال به علم أو يدرك به هدى ، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا "(١) .

---

(١) الفتاوى : ١٥٧/٤ ، ١٥٨ .

الفهـــــرس

الموضوع | الصفحة